

الباب الثاني  
في بتربورغ

obeikandi.com

## الباب الثاني

### ٣٢/١ ظا في بتربورغ

في بتربورغ وبيان وضعها وعرضها وطولها وطبيعتها أرضها ومائها وقطرها وتحلل المياه وتجليدها، وقوة البرد فيها حتى يمكن أن تنحت أحجار من الجليد ويبني بها وتمر العربيات فوق الأنهار المتجلدة، وفيضان المياه فيها، وبيان منشأ بتربورغ وتأسيسها، وتقدم البناء فيها، وكثرة الأشغال، وزيادة سكنى الغرباء فيها، والأهالي وصيرورتها تحت الروسية، وتوسيع طرقها، وحسن إحكامها وتنظيمها وترقيتها يوماً فيوماً إلى وقتنا هذا وفيه فصول.

### الفصل الأول

اعلم أن بتربورغ مركبة من كلمتين بتر يعني بطرس بانيها، وبورغ يعني بلد أو حصن يعني بلد أو حصن بطرس، والعامّة تقول بتر وهي قسبة مملكة روسيا المؤسسة في سنة ١٧٠٣، تشغل جزءاً من اينغري القديمة، وجزءاً من كاريلي القديمة، يعني الفينلاد، موضوعة في ٥٦٥٩، ٣١ درجة من العرض الشمالي، وفي ٣٠، ٥٩ من الطول من دائرة نصف النهار المأخوذة من الجزائر الخالدات في سهل متسع إلى فم النيفا في خور فينلاندا، وتمتد على الساحلين، وتشغل عدة جزائر في ذلك النهر العظيم في قبلي المدينة الغربي، وفي غربي المدينة الخور وسواحلها، ومن الجوانب الأخر سهل متسع فيه قرى مخضرة مرتفعة تذهب بمسافة من المدينة إلى ٣٣/١ وناحية الشرق، في قبلي جبال دوديروف التي سطحها يصور بثلاثين فرست من المدينة سطحاً مستديراً باعوجاج مجرى النيفا.

وبعد ٤٤ سنة من الملاحظات المتعلقة بحوادث الجو، علم أن بتربورغ ترتفع على سطح بحر بلطيق بـ ٨٥٤١ أو ٥٩٦٢٩ قدماً إنكليزياً، والأرض كثيرة الجزائر، وهي عموماً دسمة ومهتزة، وتحت سطحها السبخي يوجد

راق غليظ من تراب الفخار في بعض المواضع، وفي بعضها من التراب الصالح للوقود، وفي الأعلى رمل، وفي النادر حجارة. وهذا الحساب كان أول مرة سنة ١٨٢٧، وحاسبه القولونيل ترلتيسكي، حسب أيضا أن موسقوت تحت جدران كريملان ترتفع بـ ٦٢١٨٤ على علو النيفا العادي، تحت قصر الشتاء، ومع أن الله تعالى أحاط بتر بورغ بالمياه الغزيرة ما حلى نواحيها بما هو زينة الأنهار، فالنبات فيها عموماً ضعيف، وذابل، ومن المنتهات تنبت أشجار قصيرة متفرقة مثلاً، هنا محل مملوء بشجر الصفصاف وبعيداً آخر مملوء بالصنوبر أو بالقان، وهناك حور مخزن أو اسفندان بورق لطيف مرتفع على أرض رطبة أو مرملة بظل قليل ضعيف، حيث خشونة الأرض الطبيعية لم تغلبها قوى الصناعة، لكن أكثر هذه المنتهات قد طم باجتهادات الإنسان السعيدة، وانقلبت الآن إلى مروج بهية وبساتين مملوءة بالأزهار، واليوم في الأراضي المخدومة حول المدينة تبسق في كل ٣٣/١ ظاً موضع الأشجار اللطيفة وتبدو الخضرة الريانة المتكاثفة والخضارات ينجح نباتاتها للغاية في حوالي بتر بورغ.

وفي سنة ١٧٧٣ اعتبر الخواجة موديل الكيماوي المشهور ماء النيفا منتج من ملاحظاته، والملاحظات التي كانت قبل إنه يشتمل على جملة كثيرة من الحمض الفحمي بلا أدنى خلط معدني إلا بملح عادي قليل جداً، بحيث لا يحس به، وأيضاً ماء النيفا معروف بأنه من أقصى المياه وأنفعها لاستعمال الناس، وإن كان ماء الأنهار الصغيرة وخليجان المدينة بسبب البالوعات التي تلقي فيها وعبور السفن الكثيرة التي تأتي لتموين المدينة غالباً مكدرًا ومحتويًا خصوصاً في الصيف على بعض مواد مضرّة بالصحة، ففي مقابلة ذلك ماء النيفا في كل فصل شراب زلال للسكان، عذب بارد شفاف، إلا أنه للغرباء مسهل أول الأمر، كما قلت في المفاخرة بينه وبين النيل مشيراً لذلك :

ولم يذق حلوه وعذبه  
هذا شراب وذاك شربه

من قاس بالنيل نهريفا  
عندي عليه دليل ذوق

وقد اعتنت المملكة في كشف الوسائط الدافعة للضرر الناشئ من الخليجان، ومحيط دائرة المدينة الآن ٣٥ فرست، وسطحها نحو ١٨٠٠٠٠٠٠ سجين

مربعة، وطولها ٦ فرست من ركن حارة نارفا حيث تصب فونتانكه في النيفا إلى دير سمولني، وعرضها ٨ فرست من الحاجز الموسقوي إلى ساحل (٣٤/١) النيفا الأيمن أمام جزيرة أبوتيكير أو جنينة البوتانيك الصيدلانية، ونصف المدينة تقريبا محدد بالنيفا وخلقجانه الأصلية، وربعا محدد بمياه الخور، والباقي يطل على القرى، والمدينة مكشوفة بحيث من كل طرف ولها وسائل قليلة لتلطيف صعوبة هوائها الطبيعي لوضعها الشمالي، وفي قطرها الصعب يحدث في الهواء تغييرات متواترة شديدة، لكن أصل الهواء صافي والرياح مع شدتها تهب دائما، وخصوصا من الشرق تبرد حارات بتربورغ العريضة وتفرق بخار البحر والأدخنة المضرة المتولدة من المنتععات المحيطة بالمدينة، والطقس المتوسط نحو ٣،٠٩، والرياح الغربي هو الغالب، والرياح القبلي الغربي بسبب الغيوم والرياح الشمالي الغربي مصحوب في الصيف بالصحو، وفي الشتاء بالنشوفة والبرد، الطقس المتوسط لوحظ في سنة ١٨٣١، ٢٩٦ وأيام الغليتي نادرة جدا، عدت في سنة ١٨٣٠، ٤٩، وفي سنة ١٨٣١، ١٠٩، والرياح العاصفة لوحظت في سنة ١٨٣٠، ٦ مرات هبت على ٦ مرات من قبلي و (١) من قبلي غربي و (١) مرة قبلي شرقي و (١) مرة من الشمال الشرقي، وفي سنة ١٨٣١ كانت الرياح العاصفة ١٥ مرة، (٦) من قبلي غربي، و (٢) من قبلي و (٥) شمالي الشرقي و (٢) غربي.

والعادة أن النيفا يتجلد في تشرين الثاني، ومن سنة ١٧١٨ في مدة ١١٤ سنة ما حصل إلا ١٤ مرة، إنه تجلد ٣٠ أو ٣١ تشرين الأول ومرة في سنة ١٨١١، ١٦ تشرين الأول، وفي هذه المدة (٣٤/١) بعينها ما تأخر تحلل الجليد إلا ٦ مرات، ووقت تعويقه في التجلد كان ليلة ١٣ إلى ١٤ كانون الأول سنة ١٨٢٦، ويمكن أن يلاحظ أن النيفا الأول من نيسان وقت عادي للتحلل، وفي مدة ١١٤ سنة المذكورة لم يتحلل النيفا أبدا منها من ٢٠ آذار إلى ٣١ منه إلا ١٦ مرة، والتحلل الأعوق كان في سنة ١٨١٠م، ٣٠ نيسان، والأبدر كان في سنة ١٨٢٢، ٦ آذار، والعامتة الذين أمثالهم في الغالب من قبيل المكاشفات خصوصا فيما يتعلق بقطرهم يحددون تاريخ تجلد النيفا، وتحلله بهذا المثل المضاعف « ليوم مارنقوله الماء يجبس»، «وليوم مارجورج القنطرة ترتفع»، وذلك أن يوم مارنقوله صاحب الكرامات، ٦ كانون الأول، ويوم مارجورج ٢٣ نيسان.

وعلى ما قلنا يعرف القارئ إن في ٦ كانون الأول على الحقيقة الصر  
يحبس المياه ويغطيها بالجليد، وفي ٢٣ نيسان عند التحلل ترفع القناطر التي  
هي من السفن الجامعة لساحلي النهر، فانظر لطول مدة البرد في هذه البلاد،  
وقصر مدة الربيع والصيف، فهل كان هنا أبو منصور قسم بن إبراهيم<sup>(١)</sup>، الملقب  
ببزرجمهر من شعر البيتامة، حيث قال في استطالة الشتاء واستبطاء الربيع، ما  
تفرد بمعناه، وأحسن كل الإحسان في التشبيه البديع.

لقد حال دون الورد برد مطاؤل      كأن سعوذا غُيبت في مناحس  
وحجب في الثلج الربيع وحسنه      كما كن في بيض فراخ الطواوس

وعند تحلل النيقا، سكان الساحلين المتقابلين المغترقين غالباً عدة أيام  
بسبب صعوبة الممر يتكاثرون بغاية الغية والقلق على ساحل النهر كي  
ينظروا البعث الذي بواسطته يؤذن بالعبور.

قلت في سنة ١٨٤١م عوق جداً إلى ٨ كانون الأول وكدر الناس ورفعت  
القناطر مرات حتى كان هذا سبباً لفائدة عظيمة، وهي أن أبهة القيصر أمر  
ببناء قنطرة مثبتة على كل حال، وقد شرع فيها من مدة سنين، وهي الآن  
على طرف التمام، حتى إنه مر عليها بعض الناس في هذه السنة في وقت هيجان  
النيقا للتلجلد، وفي السنة الآتية تسلم للعبور لجميع الناس بعد أن يعبر عليها  
القيصر أول مرة. وفي وقت اضطراب النيفا بالجليد تأتي الناس أفواجا على  
الساحلين للنظر وقلت:

على ظاهر النيفا جليد تراكمت      جنادله ما بين مُرغ ومزید  
فها هو يبكي رعدة وترى الورى      يقولون لا تهلك أسى وتجلد

(١) ١٣٥١] وفي سنة ١٨٤٤ تحلل النيفا بسهولة عظيمة، ففي ليلة ١٣ نيسان  
ابتدأ، وفي صبحه عبروا.

(١) هو: أبو منصور قسم بن إبراهيم القائي، وللأبيات الشعرية انظر: النعالي: تيممة الدهر، مصدر  
سابق، ج ٤، ق ٢، ص ٢٣١.

ولما رتب بطرس الأول منجرة المدينة نسب لها في سنة ١٧٣٠ النظارة على كل أبنية بتربورغ المخصوصة، ونتج من هذا أن سلوك النيقا بعد التحلل يتوقف على إذن رئيس المنجرة، وكان التكلف الذي يفعل لهذا سابقاً غير ما أمر به ٧ أيلول سنة ١٨٣٢، ورئيس منجرة المدينة بإشارة لائقة من ساحل الترسانة يذهب من أمام بيت القيصر بطرس الكبير في زورق بمدفع صغير وفيه بنديرة المنجرة المذكورة إلى قلعة مار بطرس ومار بولص، وهذا الزورق يصحبه زوارق الناس الذين يريدون يحضرون التكلف، وفي ذلك الوقت بعينه يخرج من الترسانة نحو القلعة مدير أبنية وزارة البحر، وإذا كان مريضاً أو غائباً، فناظر الأشغال المذكورة ينوبه في زورق بمدفع وبنديرة، وعند وصول كل أمام القلعة يسلم بطلق ٧ مدافع، والقلعة ترد سلام المدير أو نائبه بعدد مساو، وسلام رئيس المنجرة بخمسة فقط، وبعد السلام وردّه، يذهب حاكم القلعة منها ببنديرة لائقة بمقامه، ورئيس المنجرة والمدير أو نائبه يذهبان لملاقة حاكم القلعة، ويخبرونه بإمكان العبور على النيفا من الطرفين، فحينئذ تذهب كل هذه الزوارق إلى مرسى القصر، يتقدم أولاً زورق رئيس المنجرة ويتبعه زورق المدير، ويتبعه زورق حاكم القلعة، مقدم كل الثلاثة قبل المؤخر، ٣٥/١؛ وإن كان الزورق القيصري وزورق رئيس الدنما وزورق وزير البحر في الترسانة، ذهبت لملاقة حاكم القلعة، وتبع زورقه، وإذا قرب حاكم القلعة من القصر سلم بطلق ٧ مدافع.

ثم يصعد حاكم القلعة والمدير والرئيس إلى القصر ويخبرون بأهية القيصر الأول بالدعاوى التي يرجع فيها إليه والأخيران بإمكان العبور على النيقا من الطرفين، وعند صعود حاكم القلعة مع تبعه إلى القصر ببنديرات الزوارق تجذب أيضاً، وحينئذ زوارق الناس التي صحبت الموكب تذهب إلى مراسيها الصيفية، وحكم جواز النهر من ذلك الوقت الجواز والألوف من الناس التي تغطي ساحلي النيفا المتخلص من غطائه البارد وتطلق المدافع، وشوبشة النواتية التي تنزل في النهر والزوارق التي لا تعد ولا تحصى التي تمخر في النهر من كل طرف، كل هذا يظهر صورة موافقة لزمان بطرس الأول، الأب الشفوق على بلده الجديدة وعياله العديدة.

وأما في هذا الوقت فيذهب حاكم القلعة وحده في زورق، ويأخذ معه حفّة مملوءة من ماء النيفا إشارة إلى جواز الجواز، وحينئذ يملؤها القيصر مجرات، وتطلق المدافع ويبتدئ العبور، وأما تجلد النيفا فليس له رسم الآن، لكن في أيام بطرس الكبير كان المرور على الجليد متوقفاً على مررو واحد مسخرة من القصر يمر أولاً على الجليد، وعليه بدلة مسخرة وخلفه بعض أشخاص بعضهم يحمل راية من القماش، والأخر بأيديهم قوس وحبال ٣٦١ ووقواديم والشاطئ الذي ترسي عليه السفن المزين الآن بحجر الصوان المحكم جداً بحيث يظهر أنه مسبوك عليه في قالب خارج عن القياس ابتدئ تشبيته في حياة بطرس في بعض مواضع بأوتاد وأخشاب وموضع المرسى العجيبة المزين بالأواني الكبيرة.

كان إذ ذاك مرسى من الخشب عادية خشنية، وبعد السطر الأول من البيوت كانت العين تقضى بالحزن عن المنتقعات الواسعة، والآن تقر برؤية آثار الصنائع العجيبة والعمارات التي تنافس العمارات القديمة، ثم إن ربيع بتر بورغ المبتدأ على حساب السنة الشمسية من ٨ آذار لا يكون حقيقة إلا في آخر نيسان، وحتى تارة في أواخر أيار وزيق ميزان الهواء يقف تحت درجة الجليد، ومع أن حر الشمس أذهب الزحلقة في سنة ١٨٢٦، حصل في بتر بورغ أمر نادر جداً، وذلك أن عربات الزحلقة ابتدأت بالسهولة في يوم الأحد عيد الفصح؛ لأن في أمس ذلك العيد ٢٤ آذار وقع ثلج كثير وغطى وحل الحارات، وطم حفر الماء الصغيرة، وكان الصرست درجات، لكن ما دام ذلك زماناً طويلاً، وعلى كل حال فالربيع لا يتخلف عن تحلل النيفا، وتحلل جليد بركة لادوغة بعده بنحو أسبوع، فأول فصل الربيع منوط بتحلل الجليد، وإذا تأخر التحلل فمرور الربيع إلى الصيف سريع جداً حتى أنه في ليلة تنمو النباتات.

وحينئذ الأشجار تبدو في الاخضرار، وبعد يومين أو ثلاثة تزهر بالكلية، وحر صيف بتر بورغ لا يزيد عن حرور ٣٦١ ظ؛ الصيف الجنوبي، لكن يدوم قليلاً، والهواء في هذا الفصل عرضة لكثير من التقلبات، وأعلى ما يكون الحر ٢٤ درجة، في ميزان الهواء في بتر بورغ، ومع ذلك ٢ تموز سنة ١٨٠٢، كان الحر في الظهر ٢٦ درجة، ٦، وفي ٢٥ تموز سنة ١٨١٢ كان ٢٧ درجة ٢، والزوابع والصواعق عموماً لا تمتد ولا تقوى والغيوم تتفرق بالسرعة، ونادراً فوق المدينة

وأندر من ذلك تسبب الضرر عنها، وليالي بتر بورغ في الصيف لطيفة جداً، فهي لا ليل ولا نهار إنما الدغيشة أو تباشير الصباح كأنها مركبة من ظل ونور، وقلت في ذلك:

في بتر بورغ بدائع                      وعجائب وغرائب  
فالصبح فجر صادق                      والليل فجر كاذب  
فكانها لضيائها                      الليل منها هارب

والرياح في هذا الفصل في العادة ساكنة، والهواء صاف خفيف شفاف حتى تمكن القراءة في كل ساعات الليل، ففي الحقيقة بمجرد ما يسطع شفق المساء في الأفق يرى في شرق القطب تباشير الصباح ناشرة راياتها الحمرة، وأطول يوم في بتر بورغ ١٨ ساعة و٢٩ دقيقة، يبقى ٥ ساعات و٣١ دقيقة مسافة الليل بلا ظلمة الذي نعتناه آنفاً، فإذا وقع الصوم في هذه الأيام كان عسراً، ومع هذا فالمسلمون يصومونه، وانظر لقول أبي الغنائم الرملي، مع أنه لم ير مثل هذا الطول<sup>(١)</sup>:

شهر الصيام مبارك                      ما لم<sup>(٢)</sup> يكن في شهر آب  
خفت العذاب فصمته                      فوقعت في نفس<sup>(٣)</sup> العذاب

والشمس في الانقلاب الصيفي تطلع في ٢ ساعة و٤٧ دقيقة، وتغرب في ٩ ساعات وربع، ولهذا من أول شهر آيار إلى أول شهر آب لا يوقدون فوانيس الحارات، ولما رأيت أول مرة إيقاد فوانيس الحارات أول آب، وكانت كاملة الضوء وشكل مصابيحها كالهلال، قلت:

(١) نُسبت الأبيات إلى أكثر من شخص، فُنسبت إلى أبي سهل البوشنجي في التذكرة الحمدونية، محمد بن حسن بن علي بن حمدون، تحقيق: إحسان عباس، بسكر عباس، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٩٦، ج ٩، ص ٤٠١؛ كما نُسب إلى ابن المعتز في: حسن البوسبي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، حققه: د. محمد حجي، د. محمد الأخضر، ط ١، دار الثقافة، الدار البيضاء (المغرب)، ١٩٨١، ج ١، ص ٣٠٥، ونُسب أيضاً لأبن الرومي في: علي بن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، دار الطباعة الأميرية المصرية، ١٨٦١، ص ٩٢.

(٢) في التذكرة الحمدونية: (إن لم)، وفي زهر الأكم في الأمثال والحكم: (لو لم)

(٣) في التذكرة الحمدونية: (في عين)، وبين البيتين بيت هو (اليوم منه كأنه في طوله يوم الحساب)؛ وفي زهر الأكم في الأمثال والحكم: (في عين).

مصباحها يبدو كشكل هلال  
لكن أقول إذن نجوم ليالي

لله ما أحلى الفوانيس التي  
لولا تعددها لقلت أهله

مع أن الليل بعد لم تتكامل ظلمته بل فيه بقايا النور، وتأتي الناس بكثرة لرؤية ذلك أول مرة ثم يتركون، وندر تبسم الخريف، بل هو دائماً عبوس مظلم معزن بسبب أمطاره المتتابعة، والسماة المغطاة ببحر من الغيم السنجابي والرياح العاصفة في الجو، كل هذا يعرض النفس للحزن ويتعب ويضعف الجسم ويوحد الطرق، فأذن أن أحوالها تقصر عن أحوال نيسابور التي وصفها الأستاذ أبو نصر الأصفهاني<sup>(١)</sup>، فقال<sup>(٢)</sup>: «البيسط»

وبيننا أبحر تطمون من اللئق  
بالعووم أو بركوب الفلك من غرق  
حتى يعود جديد الثوب كالخلق  
ما أسود وأبيض فوق الجلد من بهق

كيف المسير بنيسابور في الطرق  
يا حبذا البحرينجو فيه صاحبه  
ترش منه على أثوابنا مع  
كأنما رطبها فيها ويابسها

وفي هذا الوقت، الهدوء مضر،<sup>(٣٧)</sup> والحركة لازمة، والريح الغربي في شهر تشرين الأول والثاني يهب بشدة، وتارة يهيج الصواعق التي تسبب بعتة فيضان المياه التي في وسطها أسست المدينة، ويبل الحارات الواطية، والصر القاسي من عيد الميلاد إلى ٢٠ كانون الثاني، وحينئذ ينزل ميزان الهواء إلى ١٨ أو ٢٢، وندر جداً أسفل، وتاسع شباط سنة ١٨١٠ كان في ميزان الهواء ثلاثين تحت الصفر، وفي ٢٣ كانون الأول، ٢٥، ٣١، ومن سنة ١٧٦٦ إلى سنة ١٧٧٠، وصل البرد إلى ٣٣، ويحسن هنا إنشاد قول أبي سعيد الأبى (٣) من شعراء اليتيمة في وصف البرد:

(١) هو محمد عمر بن محمد الأصفهاني، أبو نصر. توفي سنة ٥٨١ هـ. أبو الطيب البخاري: دمية القصر وعصرة أهل العصر، ج ١، تحقيق: محمد التونسي، بيروت، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص ص ٤٣٠-٤٣٨.

(٢) انظر الأبيات المصدر السابق، ج ١، ص ٤٣٤.

(٣) هو: أبو سعد منصور بن الحسين الأبى. الثعالبي: يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج ٤، ق ٢، ص ١١٩-١٢٦؛ وابن شاعر الكمي: فوات الوفيات، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د. إحسان عباس، ج ٤، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣، ص ص ١٦٠-١٦١. والأبيات في يتيمة الدهر، مصدر سابق، ج ٤، ق ٢، ص ص ١٢٣-١٢٤.

أصوات بردًا في النداء  
والصوت يجمد في الهواء  
ج إذا مشينا في فضاء  
حيّة ضريت كالهباء  
بيض السيوف أو المراء  
سـى قد أتتك بلا إناء  
من رحيق أو طلاء  
قد رضيت به نواء  
جر الهوى برد الهواء

في موضع خفيت به الـ  
فالريق يجمد في اللها  
نطاً الزجاج في الزجاج  
والجو يلمع في نوا  
وكانما صقلت به  
جمدت له الصهباء حتـ  
فإذا أردت خرطت مصك  
لوعاين العذرى مثوى  
أو حلّة ألهاه عن

وليس بلازم أن تقول إن أقصر يوم في الشتاء مساو لأقصر يوم في الصيف، بحيث تكون الأشغال غالبها في نور الشموع، ومع ذلك فلا يغترون عن أشغالهم، بل الأمر بالعكس ينشطون، والظلمة لا تعوق، إذ المدينة موقودة دائماً، وكذلك البيوت، وقلّت الأمطار في الشتاء سبب الصر الكالج، إنما هو الثلج الذي ينزل أول الشتاء فيغطي الأرض ويبيضها فتترحلق الناس في العريبات وينسرون بذلك، وعلى الأنهار فلا يصلح في هذه البلاد قول القاضي عياض<sup>(١)</sup>:

كان نيسان أهدى من ملايسه  
لشهر تموز أنواعاً من الحّلل  
أو الغزالتة في شمس الضحى خرقت  
فما تفرق بين الجدي والحمل

ولا قول الآخر: «وكان أبخل من تموز في المطر»

ولا قولي:

مثل ما شحّ بالحيّا تموز

فرايت الحبيب شحّ بوصل

(١) عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي، القاضي، أبو الفضل السبّعي. توفي سنة ٤٤٤هـ. ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثهم وفقهائهم وأدبائهم، تحقيق: بشار عواد معروف، ج ٢، تونس، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى: ٢٠١٠، ص ٧٤-٧٥؛ وابن خلكان: وفيات الأعيان، مصر سابق، ٣، ص ٤٨٣-٤٨٥؛ والذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ١١، ص ٨٦٠-٨٦٢. وانظر الأبيات عند ابن حجة الحموي: ابن حجة الحموي: خزنة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شعيتو، ج ٢، بيروت، ط ١، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨٧، ص ٢٤٤.

٣٧/١؛ إذ ليس المطر من ملابس نيسان حتى يهديها لتموز، بل الأمر بالعكس، فتموز كريم بالأمطار في هذه الديار، فيحسن فيه قول الأستاذ أبي المعمر يعمر من شعراء الخريدة<sup>(١)</sup> :

والجو ما بين تسجال الغمام وتسج — اع الحمام وتسجام الشآيب  
فمن هزار على الألعان مرتجز — ومن رذاذ على الريحان مسكوب  
وقد لوحظ أن عند قرب البرد القاسي يتغطى أديم الأرض في وقته ببساط  
ثخين أبيض من الثلج، وتتغطى السطوح الذي غالبها أسود بالثلج، كما قلت:  
واسنمة السطوح السود حازت — بياضاً حين جللها الجليد  
فهل شابت من البرد الذي لا — محالة قد يشيب به الوليد  
وقلت:

انظر لأسنمة السطوح — ح وقد تغطت بالجليد  
كبرادة من فضة — نثرت على لوح حديد

وفي سنة ١٧٠٩، وسنة ١٧٤٠ حين الشتويات القاسية جداً غطت جزءاً من خور البندقية بسطح قوي وكبير من الجليد، كان البرد بحسب ملاحظات العلماء نازلاً في ليزيغ إلى ٢٠، وفي فرانكفور إلى ٣٠، وفي أوبسال إلى ١٨، وفي فيمار إلى ١١، وفي لوندرة وهامبورغ ودانتزيغ أسفل من ١٨، وفي بتر بورغ من ١٥ كانون الثاني إلى ١٥ آذار سنة ١٧٤٠ بين ٢٦ و ٣١، وبملاحظات علماء الطبيعة اختبر الثلج الذي يغطي الأرض بأكثر من قدمين في العمق، وبرهنوا أن الأرض مع وجود هذا البرد المستمر الخارج عن العادة ما تجلدت إلا بعمق ثلاثة أقدام، ولهذا البذور وجذور الشجر ما انضرت، والصيف الذي عقب ذلك كان مخصباً للغاية.

وفي كانون الثاني سنة ١٧٤٠ بنى على النيقا أمام القصرييت من الجليد طوله ٨ سجين، وعرضه ٢ وسمكه ٢/٣٨ و١٢ مسقف والجدران مبنية بصخور عظيمة مكعبة من الجليد الذي صب بينها كالخافقي الماء الذي يتجلد في

(١) هو أبو المعمر، نعيم بن الحسن بن المظفر. أبو الطيب البخازي: دمية القصر وعصرة أهل العصر ١: ٦٠٤-٦٠٦، وانظر الأبيات في المصدر السابق ١: ٦٠٦.

الحال ويلحم الصخور، وعلى السقف بنيت ممشى مربعة مزينة بكبوش مصورة، ووجه البيت مزين بأعمدة فوقها قوصرة متوجة بالتماثيل، وتحويط الباب والشبابيك الذي في غاية الذوق منقوش برخام أخضر، والشبابيك وحتى قزازها من جليد رقيق، والبيت محوط بحاجز جميل بدرابزي فيه باب كبير وبابان صغيران، وعلى هذه الأبواب موضوع قصاري برتقان أخضر، وفي الجوانب أشجار عادية جذرها وأوراقها حتى والأغصان الجاثمة عليها الطيور مصنوعة من الجليد بغاية الإتقان، وخارج الدرابزي ٦ مدافع عيار ٣ أرتال مع الآتيا من عجلة ودكة وغير ذلك، و٢ هاون عيار ٨٠ رطلاً، و٢ دارفيل، وعلى يمين البيت وشماله هرمان مربعان فارغان، وفيهما في الجهات الأربع من أعلى طبقات مدورة، وعلى يمين البيت بمسافة قليلة فارسان ريعا القامة يقرب فيل كبير كالعادة فوفا فارس ثالث قائده، وعلى الشمال حمام معرق دفي، وفي عدة مرات لبعض ناس استحموا، وكل هذه الأشياء مصنوعة من الجليد المنشور المنحوت المصقول بغاية الاعتناء بلا خلط شيء آخر من الإجمام الجامدة.

وهذه الأشياء مع اتساقها واتقان كلها وكل جزء على حدته تتميز بهندسة دقيقة وتقضي العجب بصلابتها، خصوصاً مدة الامتحانات المختلفة المصنوعة بحضرة القيصر (٢٨/١) وعائلته، وجملة كثيرة من الناظرين، وقد طلقت مدافع الجليد بجلة حديد ونصف رطل بارود صب بلا تعميم في القصبة، والجلل أصابوا لوحاً من الخشب ثخنة قدما من موضوع بمسافة ٦ خطوة، والأهوان المعمرة بربع رطل بارود رموا البنب.

وفي الليل الدرافيل تصب من مناخيرها من عمد عالية النفط الملتهب، والفيل يصب من خرطومه ماء بقوة بعلو ٢٤ قدماً الذي في محلها في الليل عمود نفط بتلك القوة، والماء والنفط مجلوبان من الترسانة بواسطة مجاري، وزيادة على ذلك رجل مستتر يحكي صياح الفيل بواسطة بوق موضوع في جسمه، وفي الأهرام كان معلق فوانيس تهتز طول النهار، وكانت منقوشة بمئة لون وبصور غريبة ومضحكة، وفي كل هزة تظهر صورة في طبقات الأهرام تحظ السكان، وفي الليل تولع الفوانيس، وزينة هذا البيت الشتائي من داخل

تقضي بالعجب أيضاً بواسطة إتقان الأشياء الجليدية الموجودة هناك ودقتها، فيدخل الإنسان بعد صعود بعض سلالم في مدخل محتو على أربعة شبابيك.

وفي كل من جهتي هذا المدخل أوضه بخمسة شبابيك بسقف تحتاني فقط، في واحدة منها سفرة الفندرة تحت مرآة، وشمعدانات، فيها شمع يولع مدهوناً بالنفط، وساعة وأواني مختلفة، وجزر صغيرة، وقزازات صغيرة، وفي الجدار الحاجز معلقة مرآة أخرى، وفيها فرشاة بناموسية ومخدات وألحفة وغير ذلك، وبقرب الفرشاة طاقتان وزوجان (٣٩٧) من البوابيج، وفي مدخنة مزينة بالتماثيل المجسمة، يولع قطع الجليد المدهونة بالنفط، وفي الأوضة الأخرى سفرة عليها ساعة دقاقت، وورق حقيقي للعب ملصق بالسفرة بواسطة الصر، وفي الطرفين كراسي، وفي الأركان تماثيل، وهناك دولا ب مزين بصور، ومملوء بأواني النقل والحلاوة وصواني للشاي، وكبايات وملاعق وأناجر مع أطعمة وصحون مملوءة بالفواكه، كل هذا من الجليد مصنوع في غاية الذوق واللطف في غاية التطبيق لهذا الغرض، وهذا البيت في النهار بسبب شفافية الجليد المصقول الذي يميل لونه إلى الزرقة كأنه مبني من حجارة الياقوت الأزرق، وفي الليل الأضواء تلمع في داخله، وفي أعلى الأهرام والجدران تصوير بالكلية نيرات، وهذه الأنوار التي تقصر العبارة عن وصفها الساطعة على ألف زينة من الجليد تظهر للناظر المندهش صورة قصر من قصور الجن، وهذا القصر بني لأجل عرس، واحد مسخرة من القصر الملكي الذي غير دينه، ومعلوم أنه سكن هذا القصر مع زوجته بعض أيام، وكان مأذوناً لكل الناس الذهاب للتعرج على هذه الأعجوبة والتحفة المرغوبة، لكن كثرة الغاوين وازدحام المتفرجين خرج عن الحد حتى اضطر إلى تحويطه بالخشب ونصب ديدبانات عليه.

ومن ١٥ كانون الثاني إلى أوائل آذار بقى هذا البيت العجيب الساحر للب اللبيب بغاية القوة بواسطة البرد المستمر من ٢٥ درجة إلى ٣٠ درجة، وفي نصف آذار الثاني ابتدأت الحيطان في الانشقاق، وبعد ذلك بقليل تساقطت (٣٩٧) بالكلية نحو الجهة القبلية، فحينئذ خرب ونقلت صخور حيطانه بالتعظيم

إلى سردابات الجليد التي في القصر، لأن هذا الشهر تقطع صخور كالجنادل من النيفا، وتحمل إلى السراديب لتبريد المياه وتجليد الحلوى وبعض الأطعمة فتبقى إلى الشتاء، وقد صنّف الخواجة كرافت أحد أعضاء أكديميا العلوم والمعاصر المعين لذلك الزمان كتاباً وصف فيه هذه البنية العجيبة، وذكر التجربات والملاحظات التي ذكرها علماء الطبيعة في شتاء سنة ١٧٤٠ في هذه المدينة، وهذا الكتاب طبع في بتر بورغ سنة ١٧٤١.

والآن يوضع في الشتاء تارة نحو الحافات اليمنى واليسرى من المنزل المنحدر الذي يبنى بأخشاب وألواح ثخان فوق مرسى النيفا دعائم من الجليد لإمساك حائط هذا المنزل، وفي سنة ١٧٣٣ في المنزل المجاور لقصر المرمربنى فلاح دويرة من صخور الجليد التي يغطي بردها دائم الخرق المحفور لغسل الثياب، وباب البيت وشبابيكه رميت بصناعة بواسطة كرات الثلج، وهذا يمكن أن يكون وحده المرئى من هذا النوع في بتر بورغ بعد القصر المشهور سنة ١٧٤٠، وقد بنى في مدينة لوبك سنة ١٧٤٠ أمام باب المدينة الكبيرة برج من الجليد، وعلى المتراس ٥ مدافع، وفي الوسط سبع طوله ٧ أقدام، وهذا البرج كان محكم البناء، إلا أنه تقليد صغير، لقصر بتر بورغ الفريد في بابه، وإذا تجلد النيفا وسكن تماوج الجليد على سطحه وضعت ألواح من ساحل إلى آخر لأجل العبور، فما أعجب هذا أول رؤيته والجم غفير والخلق كثير، ثم بعد تقوي الجليد لا حاجة لهذه الألواح بل يمر الناس على سطح النيفا، فكم من واقية تمشي على الماء وإذا زاد تقويه ١٧٤٠/١ وإذن فى وطنه بالعربيات، وحينئذ يكون كالارض الصلبه وعليه كالتراب، ويكون مصفراً قليلاً من دوس المارة، وقلت فى المفارقة بينه وبين النيل:

حتى غدا أصفر الإهاب  
والماء يعلو على التراب

هيا انظروا ما أصاب نيفا  
النيل ماء وذا تراب

وقلت أيضا:

سـدبـه طـيـن قـذـر  
جـمـودـه الشـب الزـقـر  
وذا كـطـود منقـعـر

إن قيل إن النيل في المـ  
فإن نيفاكم حكى  
النيل عذب سائغ

وانما وضعت هذه الألواح لتعجيل المرور، فإنه إذا انتظر وضع القناطر أو تقوى الجليد طال الأمر، وذلك لأنه لا بد من أسبوع لوضع القناطر بسبب قطع الجليد الذي كالصخور، وربما هلك في هذا الشغل الشاق بعض الناس، وأما بعد التحلل فالعبور في الزوارق ممكن حتى مع وجود بعض جليد ورد القناطر سهل لعدم الجليد، وفي كل سنة بعد تحلل النيقا بنحو أسبوع يرجع الجليد من بركة لا دوغة بقوة لا تستطيع أن تبقى معها القناطر، بل ترفع لكن في هذه السنة سنة ١٨٤٤ لما تحلل النيقا لم يمكن الشغالة رفع القناطر، بل أخذها الجليد وذهب ٧ فرست، ثم ردت بعد جمعة بواسطة مركب النار لكن متفرقة، وذلك إن هذه القناطر مركبة من ١٧ سفينة كبيرة ملوح فوقها، ويمكن رفعها وردا حتى عند عدم الجليد كل ليلة ترفع لأجل عبور السفن، لكن عمّرت وردت كحالها، وما رجع الجليد هذا العام من لا دوغة.

١٠٧٤ظا، فهذا من نوادر هذه السنة كما إن من نوادرها تحلل النيقا بسرعة بحيث لم يمكث على سطحه الجليد، وأما فيضان ماء النيقا في بتر بورغ فيقع كل خمس سنين أو ست بسبب تغير الهواء وعصف الرياح، لكن في سنة ١٧٨٨، وفي سنة ١٨٠٢ اشتد ذلك ففاض الماء في الحارات، ولكن هذا بالنسبة لمصيبة طوفان ٧ تشرين الثاني سنة ١٨٢٤ كلا شيء، وكان اليوم السادس كندير الخراب، فأمرت السماء طول النهار، وكان الريح باردا جدا، يهب بشدة عظيمة، بحيث إنه عند المساء زاد الماء جدا، والسكان الذين لم يتعودوا على هذا الفيض العميم، ولم يتصوروا أن ينشأ عنه هذه المرة من الخسارة أكثر من المرات السابقة، ولو استمر الماء على الارتفاع قضا الليلة بلا خوف، وناموا بالهدوء والسكون، وما أنشدوا قول الشاعر:

والليالي من الزمان حبالى  
ومتفكر أهل الحزم والاحتياط أن الماء في الصباح يهبط على العادة، لكن  
من المصيبة أن كان هذه المرة بالخلاف ولله خرق العوائد. فهبت في الليل ريح  
بارد قبلي شرقي، وزاد من ساعة إلى ساعة في العصف حتى صار صاعقة، وفي  
الصباح اجتمع على ساحل النيفا أمام قصر الشتاء خلق بلا عدد يضربون الأمواج  
المتصاعدة بسبب الصواعق، وعلى وجوه الناظرين يلاحظ الحيرة والانبهات  
لا الهول؛ لأنه لا أحد إلى تلك الساعة خاف مصيبة دانية، وطاقة قاصية، ثم  
بالسرعة تجاوز الماء الحد، وبلغ ١٣ قدماً، و١٤١/١ و٧ أصابع وعبر السواحل إلى  
الحارات من كل جهة إلا حارات ليتيني وكاريتي وروجيسستفينسكي،  
وزاد حتى عامت السفن الكبيرة في الحارات، وأرست عند شبابيك البيوت  
ومشربياتها، وقصر الشتاء كان كصخرة يتفجر منها الماء من كل طرف  
وتضربها الأمواج وترمي بزبدها إلى الدور الأعلى، والنيفا يغلي ويتمواج بقوة  
وسرعة فرقت شمل القناطر، وشتتت جمع السفن الثقيلة، وركابها رفعوا  
أيديهم إلى السماء منتظرين الممات قانطين من الحياة، وكثير من صخور  
الصوان تخلخل أو انقلب، وفي كل موضع الناس الذين يفاجئهم الماء ينطون  
إلى شبابيك البيوت، أو يتعلقون بأعمدة الفينارات، أو بأغصان شجر البولقار،  
أو بأعلى العربات، والغيل هلكت وفي نباتها العدة، والأطفال الذين ذهبوا إلى  
المكاتب غرقوا، وفوق الماء يطفو كثير من الأمتعة الذي نهبها الماء من البيوت،  
ومن الصليان التي قلعتها من القرافات البعيدة، فهل هو مسلم؟

والمصيبة كانت أدهى وأمر وأشتم في النواحي الموضوععة على ساحل النيفا  
الأيمن في الأماكن القريبة من الخور، فهناك علا الماء ١٦ قدماً، وهلك كثير  
من الناس خصوصاً في معمل الحديد، فإنه لما أخذ الماء في الفيض أذن للشغالين  
بالسكنى في الدور فوقاني، لكن سرعة الماء عاقتهم، واضطروا لتخليص  
حياتهم أن يشاهدوا هلاك أموالهم وعيالهم ونسائهم بلا وسيلة للخلاص وبعد  
الظهر بساعتين حاكم ١٤١/١ ظاً المدينة الكونت ميلوراد وفيج ظهر في زورق  
بائس عشر مجدافاً في شارع نيفسكي، وكثير من الناس ذهبوا في الحارات في  
زوارق، وبسببهم تخلص كثير من الناس.

وبعد الظهر بساعتين وبعض دقائق بلغ الماء منتهاه من الفيض، ثم أخذ في النضوب والفيض ذلك النهار بعينه، وكل شيء بلغ الحد انتهى، فما أفضع تلك الليلة الخراب والظلمة العظيمة، والاختلاط بحيث يستحيل توليع الفينارات؛ لأن الصاعقة كسرتها، وفي كثير من الحارات تساقط الأبنية وانشققها، وفي غيرها كان العبور مستحيلاً، وكم من مئات من الناس يكون على هلاك أموالهم وغيرهم أسوأ حالاً منهم يبكي جيف أقرابه، وغيرهم محروم من المسكن والقوت والملبس يثنون على طول بيوتهم المدرسة.

وفي اليوم الثاني أخذت الرأفة قلب الكبار، وذهب ثلاثة منهم أولاً إلى بيت الحاكم، وأعطوا مبلغ ٧٥٠٠٠ زيل لحوائج المساكين اللازمة وبيت الحاكم فتح، وصار مضيقة للناس الذين فقدوا أسباب المعيشة، وأعطى لأربعمائة عائلة وثمانين ثياباً ونقوداً للإعانة، وكان يتغذى في بيت الحاكم ويتعشى ٥٠٠ نفس كل يوم، الذي منهم ٢٥٠ يسكنون فيه دائماً، وقسم في اليوم الأول خبزاً بأكثر من ٢٥٠٠ زيل، وفي هذه الفرصة ظهر كثير من صدقات الناس السرية الذين لا يريدون أن يظهر اسمهم لتواضعهم، وكثير من المحسنين يأتي إلى بيت الحاكم، ويأخذ بعض الفقراء منه ويمونهم عنده سنة، والمملكة أعطت المثل على عاداتها فنسيت خسارتها الخاصة ١٤٢٧هـ واشتغلت بإنقاذ العامة وإعانتهم، فأعطى القيصر مليون زيل ليقسم عليهم، ولأجل تسهيل وسائل الإعانة والإسعاف أمر بنبص ثلاثة رؤساء تحت حاكم المدينة: واحد في وسيلي استروف، وواحد في جزيرة بتر بورغ، وواحد في ناحية قيبورغ.

وكان القيصر يروح بنفسه لامتحان المباني المنهدمة، ويعين رعيته بالرقعة والشفقة كالأب الرحيم، والمملك الكريم، ورتب جمعية في وسط المدينة، وأمر أن ترسل الأدوية للمرضى في كل موضع بلا تراخ حسب أمر الحكيم، وبعد أيام قليلة من هذا الطوفان البارد جاءت الحمى الصفراوية بين أدوان الناس، إن المصيبة ليست بيضة الديك، فأرخص القيصر الملح والخبز وغيرها من الأقوات

اللازمة، (وفي عدة من أخطاط المدينة يقسم الخبز وغيره من الأقوات) <sup>(١)</sup> اللازمة صدقة من طرف المملكة، وجلب من الريف كثيراً من الفلاحين للأشغال، أجرة الواحد عينت بزبل ونصف في اليوم، وهذا السعر ارتفع بسبب الدعاوى المفرطة من الشغاليين الموجودين في المدينة آخر تشرين الثاني، وصاروا لا يأخذون أقل من ستة زبل في اليوم.

وبواسطة هذه الاجتهادات زال الضنك والمرض المسببان عن هذا الحادث المنحوس، وبرحمه الله وإسعاف القيصر والمحسنين انمحي ذلك الأثر.

وفي ١٥ تشرين الثاني اشهرت الصلاة لشكر الله الذي يعاقب ويعفو، ولا يستقصي في الغضب، وفي ٢٢ من ذلك الشهر اشهرت صلاة الجنازة على كل غرقى هذا الطوفان، ثم انمسح ذلك حتى من حافظة الناس ودخل في تاريخ هذه المدينة، (٤٢١هـ) تذكرة للنعم والنعم، والخسارة العظمى في هذا الحادث، هي خسارة الناس، ففي المدينة وأطرافها هلك ٤٨٠ نفراً، ولا يمكن ضبط الأشياء التالفة بالتحديد بل بالتقريب، وانهدم من البيوت بالكلية ٤٦٢، وتعود ٣٦٨١، وانكسرت القناطر غير الحجرية، وهلك من المواشي ٣٦٠٠، وفي سوق المتجر تلف ٣٠٠٠٠ بود سكر- والبود أربعون رطلاً- ومثلها من الملح، ومن الغرقى ما يساوي أكثر من ٥٠٠٠٠ زبل، ومن الدقيق ٦٠٠٠٠ بود، ومن الخمر الغريب وغيره من المؤنة ونحوها ما يساوي عدة ملايين، وكان المبلغ الموزع على المصابين بهذا الحادث من طرف المملكة ومحسني الرعايا ٤٠٦٦٤٨٦، وهذا بقطع النظر عن الصدقات السرية الحاصلة من ناس عديدين للعيال المحتاجين، ومع وقوع الفيضان، بل الطوفان في هذه المدينة، فليس الخطر عظيماً بسبب الوسائط والاحتياطات المرتبة، وأكثر وقوع الفيضان في الشهر الأخير من الخريف، لكن في سنة ١٨٢٧ عصف ريح غربي وارتفع الماء ٢٩ ذراعاً ٤ أقدام ١١ أصبعاً، فكان هذا حادثاً خارقاً للعادة في مثل هذا الفصل، وأطلقت المدافع وولعت منارات الخوف لإنذار الناس لكن ذهب ذلك الخطر من حيث أتى.

(١) تكرار بالمخطوط.

obeikandi.com

## الفصل الثاني

اعلم أن بتربورغ مشبهة لحدثة من حوادث الدنيا أصلية وحكمية التي أنشأتها خواطر القيصر الراسخة بلا حد، وأعانه على ذلك اجتهاد قومه المذعنون له بالقلب، طبعت خاتماً في صفحة الدهر لا ينمحي، بتربورغ منشأ التجديدات (١٧٤٢) الروسية، بتربورغ التي ظهرت<sup>(١)</sup> بغتة في النواحي المتباعدة من الشمال مثل نجم صغير التفت نحوه كل العالم بلا اسره بلا إرادة، هذا التخت المزهر اللامع الريان الذي لم تذبله<sup>(٢)</sup> يد غريب متغلب، الذي له أول رتبة بين مدن أوروبا بسبب تاريخه العجيب وحسنه وتأثيره المتوحد على المملكة الواسعة التي قبضت بين يديها في أيامنا بخت أوروبا بتربورغ التي تفكرنا دائماً ببطرس الأول أصل كل ما نراه في روسيا، ومنبع منه يغترف كل ما يفعل في المستقبل، ومن وقت ما أظهر الشمال بتربورغ إلى الثلث الأول من القرن الثاني حصل التأسيس والزيادة والتحسينات العجيبة في هذه المدة القصيرة التي مع أنها غير مرئية في تواريخ المدن الأخرى كافية لها تمشي بقدم جبار من صغرها إلى العمر المستوي.

بتربورغ مشابهة للشجعان الروس في زمن الخرافات لم تشب من سنة إلى سنة بل من ساعة إلى ساعة، وحذق مؤسسها عام على مهدها، والعقل الثابت الأملعي والجسور من أمة الروس المحلي بقوة متينة رأسية لا تتزلزل، زبي وغذي شجاعة الشاب، وبتربورغ لم تزل من يوم إلى يوم تجذب ملاحظات الناس المتمدنة، وهذه المدينة منبع الحمية الروسية، ولها تعلق واسع بالتجارة، وتزورها سكان المدن الأخرى غالباً، وتحتوي على أشياء لطيفة وكبيرة حقيقة، وبالنظر إلى طباع الروس وكيفية معيشتهم وقلّة معرفة أوروبا بلسانهم، وبألف سبب آخر تقتضي تبييناً كافياً وتفصيلاً وافياً فنقول:

(١) كتب المصنف فوقها: بزغت.

(٢) بالهامش الأيسر من المخطوط كتب المصنف: يعني وأما موسقو فذبلتها يد نابوليون كما هو معروف.

١٧٠٣م؛ الجهة التي رمي فيها أساس بتر بورغ في سنة ١٧٠٣، كانت منسوبة للروسيا في الزمن القديم، ونهر النيفا المحدد بالمدينة معروف للروس من زمن نستور، والخطان القديمان اللذان على النيفا: واحد على الشمال ويسمى ناحية اينغري، والثاني على اليمين ويسمى كاريليا، كانا باسم فوتسكيا بيانتينا من أعمال نوفغورد الكبرى، والقيصر إيفان الثالث في القرن الخامس عشر لما أضعف القوة الجمهورية التي كانت مزهرة في الزمان السالف أدخل في ذلك الوقت تحت قوانينه كل البلاد التي كانت تحكمها، وسواحل النيفا الذي كان مدة قرون طريقاً لنوفغورد الخارجية رأوا عدة مرات الروس، وسمعوا غير مرة صياحهم بالنصر قبل أن ذهب بطرس الكبير لتملكها وردها إلى الروسية.

والنوفغورديون من مدة النصف الأول من القرن الثاني عشر كانوا يرسلون السفن موسومة بالوسق المفتخر، وفي سنة ١١٤٢م فرقوا وهزموا دننما السويد التي دخلت في النيفا لتخريف اينغري وكاريليا وبعد نحو مائة سنة يعني في سنة ١٢٤١م أرسل ملك السويد إريك الكبير مهيجاً بحقد النوفغورديين الذين كانوا يغيرون على الفينلاند بالتوالي دننما كثيرة العسكر؛ لتسخير نوفغورد، ولما جازت عمارة أريك بحر بلطيق ودخلت في النيفا، وقاطعت الطيار<sup>(١)</sup> حتى وصلت الملتقى النيفا ونهر أيزور، وصل في رأس جيش اسكندريار وسلافيج أمير نوفغورد الذي قدسته حينئذ الكنيسة، ودعا السويد للمقتال، وبعدما غرق أغلب السفن ألجأ الباقيين إلى الفرار بالسرعة، وبعد ذلك النصر المشهور بخمسين سنة (١٤٤١م) الذي بسببه لقب هذا الأمير نيفكسي سيمون ويوسانديك رؤساء القوة الجمهورية في نوفغورد تسلحوا على الأبطال العاملي السيوف الذين لا يزالون يكفرون الأرض المنسوبة إلى فوتسكيا بيانتينا، وكان التلاقي سنة ١٢٩١م عند فم النيفا وقتلهم ودمروهم، وبحيث أغرقت كل مراكبهم.

وقبل سنة ١٢٠٣م السويد الأعداء الزرق للنوفغورديين اجتهدوا في سد أبواب التجارة عليهم، ولهذا القصد منعوا أن تصل لهم في البحر الأسلحة وغيرها من الحديد، ولأجل أن يصلوا بالسرعة إلى مرامهم، اجتهدوا في تملك فم النيفا،

(١) كذا كتبها المصنف.

وبنوا في سنة ١٣٠٠ على ساحل النهر أوضة، وعلى ملتقاها مع النيفا قلعة صغيرة سموها لانديسكرون يعني «تاج الأرض»، لكن هذه الحركة ما دامت؛ لأن النوفغورديين لما فهموا الأمر جاؤوا في ربيع السنة التالية وطردهم السويدي وحلقوا<sup>(١)</sup> القلعة، ثم في سنة ١٣٢٣ لأجل التضييق على أعدائهم الحربيين في السفر من بحر بلطيق إلى بركة لادوغة بنوا في المركز الذي فيه ينفصل النيفا من البركة في قرية أورخوف الحصن المسمى في هذا الوقت أورخوفتزا أو أورشوك المذكور كثيراً في تاريخ الروس.

ثم في سنة ١٣٤٨ ماغنوس ملك السويد لما صمم على نقل النوفغورديين إلى الدين اللاتيني هجم على اينغرى وأخذ أورشوك، واستعد للهجوم أكثر لما رأى نتيجة الظفر، لكن النوفغورديين غلبوه، وعلم أن الروس من كل طرف مهطعون حول دنمنا الراسية في النيفا، فالتجأ إلى تولية الأديار بالسرعة والبداء. وفي سنة ١٤٨٧ يوحنا الثالث هجم بحملة فاصلة على نوفغورد، وصار أيضاً مالكا لكل العمارات البحرية ١٤٤٦/٤٤٧ التي بعد نحو قرن صارت للروس إلى الأبد.

وفي سنة ١٥٨١ وسنة ١٥٨٢ القيصر يوحنا الرابع الملقب بالمهدد أو المهول أشرف على ضياع اينغرى وكاريلي، وأخذ السويد نارقا، وإيفان غورد، ويام، وكوبوريا، وكاريله أو كيكسولم وصارت في تصرفهم إلى سنة ١٥٩٠.

وفي تلك السنة رجع الكل إلى الروس، وفي سنة ١٥٩٥ اعترف بأن الكل ما عدانارقا منسوب للروس بواسطة عقد تياووزين، وفي مدة الكدر الحاصل في فترة الروس عرض عليهم السويد أن يعاضدوهم ثم انتهزوا فرصة ابهالهم الذي خرب البلاد، وفهموا فحوى قول الشاعر<sup>(٢)</sup>:

لا يَصْلِحُ النَّاسُ فَوْضَى لا سَرَاةَ لَهُمْ

(١) بها تحريف والمقصود: حرقوا.

(٢) هو: صلاة بن عمرو بن مالك بن عوف بن الحارث بن عوف بن منبه، الأفوه الأودي، شاعر يماني جاهلي، توفي سنة ٥٠ قبل الهجرة. أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ١٢: ١٦٩، وانظر صدر البيت ضمن قصيدة طويلة في ديوانه، ص ٦٦. وعجز البيت هو:

ولا سراة إذ جهأ لهم سادوا

وملكوا اينغرى وكاريلي اللتين زدا لهم في سنة ١٦١٧ بواسطة عقد سطلوبون، ولما رأى السويد أنهم حكام سواحل خور فينلاندا، ومجرى النيفا من كل طرف لم يريثوا أن ينتقضوا بحسن وضع هذا النهر، فمن سنة ١٦١١ أسسوا بناء على رأي جنرال غرديا المشهور على ملتقى أخته على الساحل الشمالي قرب لانديسكرون، ويمكن في محلة بالنفس مدينة سموها نين وبقرها قلعة صغيرة سموها نينسشانتز، والروس يسمونها كانتزي، والتقارير التي كتبها غوستاف أدولف في خصوص هذه المدينة ووقعت عليها كرستينا دعت كثيرا من التجار أن يستوطنوها، وصارت من سنة إلى سنة أثمر وأزهر حتى صارت في سنة ١٦٩٤ صارت مركز تجارة معتبرة بحيث أن في مدة تلك السنة أرسلت عليها ١٠٨ من السفن، وخرج منها ٨٠، لكن مع تقدم تجارة نين كانت سعادتها قصيرة المدة بسبب أن في سنة ١٧٠٠ وسنة ١٧٠١ سكانها الذين كلهم بحيث تجار وعدة منهم أغنياء جدا؛ حتى أن واحدا منهم يسمى فريزيوس سلف شارل (١٧٠١) الثاني عشر مبلغا جسيما، وأوا قرب الاشتغال الحربي، وخافوا زحف الروس فتسللوا في الوقت المناسب، واقفرت بعدهم نين ونينسشانتز المحروس بخفر ضعيف انقلب إلى بوصطة عسكرية منفردة، وكان بشير تضععه المستقبل في شهر تشرين الأول سنة ١٧٠٢ حرب نوتبورغ السفاكتة هكذا يسمى السويد قلعة أورشك الذي بناها النوفغورديون وقعقة السلاح التي كانت مبتدأة في سنة ١٧٠٠ في حصار نارفا المنحوس على كثير من الروس، ابتدأت من جديد في سنة ١٧٠٢ على سواحل النيفا، ولما انتهى السويد تغريق عساكر الروس التي تتماوج بالظفر بقرب دورباط، أرسلوا من بحر بلطيق إلى بركة لادوغة دونما مخصوصة لإخراب القرى، وهدم الديور الروسية المبنية على السواحل، لكن لما علم أوكولنيتشي ضابط المحل وما صاقبه، وإيراكسين مأمور هذه الناحية بظهور السويد، أرسلوا ضدهم تجريد قرابية في ثلاثين سفينة، وقابلوا على البركة سفن الأعداء، وتملكوا جملة منها على كثرة المحاماة العنادية، وأغرقوا جملة، وألجأوا الباقي إلى التحصن في جدران نوتبورغ.

وفي السنة بعينها بعد مدة في شهر تموز أراد الجنرال أن يتدارك هزيمة الدنما، وتقدم في رأس عرضي عديد من اينغرى إلى ثغور الروس، لكن لما هزمه ابركسين بذاته على سواحل ايزور نهر مزين بنصر اسكندر نيفسكي

هرب نحو جبل دود رهوف، ومن هناك إلى نينسشانتر في ٢٢ أيلول من السنة بعينها تقدم الروس إلى حوائط نوتبورغ.

وفي ١٣ من الشهر التالي، دخلوها غالين، وهجوم ٤٥/٤٥؛ الشتاء عوق جري ظفرهم، والقيصر الذي كان بنفسه في العسكر بعدما سمى مانتيشيكوف المشهور حاكم القلعة المفتوحة أرسله في ذلك الخريف إلى سواحل لادوغة لادينيوية بوله، وأمره أن يبني سفناً في متجره المحل ومراكب للنقل تستعمل في الربيع الآتي لمحاصرة نينسشانتر. وأخذ نوتبورغ الذي قلب اسمها بطرس إلى شليسبيل بورغ يعني البلد المفتاح، فتح الطريق ليس فقط لفتح المواضع التي ترتفع عليها الآن بتر بورغ بل لفتح كل الأستونيا، والليتونيا، وجملة من الفينلاندا.

ولما عزم بطرس على تملك سواحل بلطيق التي كانت منتسبة للروس أمر فيلدا مارشال شيرميتوف، صاري العسكر، والذي كلها في موسقو بأن يبتدأ الحرب في سنة ١٧٠٣ بالمشي نحو شليسبيل بورغ، ومنها يهجم على نينسشانتر، وهذه القلعة الأخيرة التي تظهر شكلاً مخمساً مبنياً في ركن ملتقى أخته في النيفا، كانت من قبل الحرب بين بطرس الأول، وشارل الثاني عشر محاطة من مسافة بعيدة بمتاريس وخنادق محفورة قرب ساحل النيفا، ومن جانب شليسبيل بورغ وبين القلعة والأشياء المحيطة بها كانت عدة سفن منسوبة للمدينة، وباقي نين يعني الجزء الأكبر بقشلة كبيرة للعرضى، وكنيستين للوتريانيين واحدة للسويد، والثانية للنيمساويين على الشاطئ المقابل لأخته، وكان هكذا شكل نين ونينسشانتر في خريف سنة ١٧٠٢، وحينئذ وصل خبر أخذ نوتبورغ، وهذا الخبر تقوى سريعاً بظهور تجريدة (١٧٠٦) روسية أرسلها القيصر في طول النيفا من البركة إلى أخته، ولما نظر حكم القلعة قرب مجاورة الروس خاف على قلعته، وتحصن فيها بعدما أحرق مدينة نين التي دام الלהب يشتغل فيها مدة ثمانية وأربعين ساعة، وخوف الخفر كان له أساس، ولكن كان قبل الأوان؛ لأن الروس - كما قلنا - لا يهجمون قبل الربيع.

ومع ذلك في مدة الشتاء بعض تجريدات مرسلتة من شليسبيل بورغ من طرف الضابط مانتشيكوف، كدرت الخفر من وقت إلى آخر، وسنة ١٧٠٣ في وقت ما

سافر شيريميتوف من موسكو، وتقدم مع العسكر إلى نينسشانترز جاء عشرون ألف عسكري، ووصل القيصر إلى شليسيل بورغ، وانتظر وصول العسكر الذي كان في ٢٢ نيسان، ومشى تحت أوامر صاري العسكر مع عسكر القبطان بمصاحبة الطوبجية الذين هم جزء من عرض بري اوبرازانسكي.

وفي ٢٥ نيسان لما كان شيريميتوف على ١٥ فرست من نينسشانترز أرسل قدامه ألفين من المشاة تحت رئاسة بين باشا نيد هارديت والقبطان غليبوفسكي على سفن كبيرة كانت مستعملة على لادوغة، وهذه التجريدة التي لم تكن مأمورة إلا بكشف الموضع قربت من المتراس الخارجي من غير أن يشعر بها في الليل ٢٤ أو ٢٥، وهجمت بغتة على خفر السويد وقلبتهم، وانتهزت فرصة تكدر الحراس، وتملكت من أحد أبراج القلعة، وبعد مثل هذه الضربة باليد لم يبق للروس كثير علاج على الظاهر لتملك الحصون الأخرى التي يحرسها ٨٠٠ رجل فقط، لكن الشجعان الذين ٦٧١؛ تملكوا من البرج لما لم يكن لهم معاضد وشكوا في الظفر وتفكروا أنهم لم يؤمروا إلا بمجرد الكشف تركوا غينمتهم، وانصرفوا من السويد لما كان لهم وقت الإفاقة من هذا الإغماء، ونظروا إلى موضع الروس تشجعوا وأخذوا الحذر أن يهجموا مرة ثانية، وتحصنوا جدًا، وضيعوا على أعدائهم جمعة زمان، ولما أعلموا شيريميتوف بهذا الخبر تقدم بكل عسكره في الليل ٢٥ إلى ٢٦، وطلعت الشمس على عسكر الروس وهم تحت حوائط نينسشانترز، لكن محل العسكر كان عرضة لنار القلعة، لكن الغاب والأراضي السبخة وخشونة الأرض ما كان أنسب منها لمراهم.

وفي ذلك اليوم بعينه الجنرال لامبرت رئيس الأشغال الهندسية الروسية فتح الخندق بثلاثين سجين من القلعة، وابتدأوا في تجهيز التحصينات بصف ١٢ هاونا و٢٠ مدفعًا جلبت من شليسيل بورغ على السفن التي كانت مصنوعة في مدة الشتاء تحت نظارة مانتيشكوف.

وفي مدة تقدم أشغال الحصار أمر القيصر الذي هو قبطان الطبجية الغفر - كما قلنا أنفا - في ليلة ٢٨ بانزال ٤ أرط من عرض بري أوبرزانسكي، و٣ من عرض سيمونوفسكي في ٦٠ سفينة، واقتحم بهذه الدنما النيفا الكبير غير مبال بنار القلعة المهولته، لأجل أن يسد فم النيفا الذي ربما يصل منه سفن السويد

لإعانة المحاصرين، والسواحل المغطاة بالغابات التي بينها تعوم الدننما أظهرت لعين القيصر أرضاً وحشية لا تنعش الناس ليس فقط هذه السواحل، لكن أيضاً كل امتداد البقعة التي فيها الآن بتر بورغ ونواحيها، كان مغطى بالغابات (١٧٧١)؛ والمنتقعات غير المطروقة هنا، وهناك يلاحظ بعض دويرات منهذمة النصف يسكنها أهالي الناحية، والصيد كان واسطة تقويتهم العادي، وكان لهم غنيمة إن جاءت سفينة من البحر لأجل أن يكونوا فيها مستعملين لأجل مقاطعة طيار<sup>(١)</sup> النيقا.

ثم إن القيصر لما أمن سكان هذه الغابات في نفسهم وأموالهم، ولم يلاحظ من بعيد على البحر ولا مركباً للعدو، رجع في اليوم الثاني إلى المعسكر مخلياً في جزيرة كوتويوف ثلاث سرايا من الخفر للذب عن ثغر النيقا، وفي مدة غيبة القيصر القصيرة أشغال المحاصرة تقدمت بالسرعة، وفي ٢ الظهر كل الطوبجية والمدافع المجلوبة من شليسيل بورغ كانت جاهزة<sup>(٢)</sup> لهدم حيطان القلعة، ولما علم شيريميوتوف ضعف الحراس، وأراد أن يجتنب سفك الدم، عرض على حاكم القلعة شروطاً شريفة، إن ردَّ القلعة، لكن بمقتضى جوابه أن يدافع إلى آخر نفس، أمر بالحملة الثقيلة بطلق كل المدافع عموماً، وردَّ السويد كذلك.

وبعد ذلك في الساعة السابعة من المساء إلى الساعة الخامسة من الصباح، لم يكن إلا الطلق المتوالي بلا أدنى انقطاع، فحينئذ فقط أحسن الحراس بضعفهم عن المقاومة زماناً طويلاً، وخافوا من الهجمة القاضية، فمالوا إلى الصلح وخلي لهم السبيل إلى فيبورغ، وكان في آيار سنة ١٧٠٣ في الساعة التاسعة من المساء أن عرض بري اوبرانسكي الذي كان فيه شاهزادة الكسي تعلم ضرب السلاح أولاً، دخل غالباً (١٧٧١) في قلعة نينسشانتز التي في ذلك الوقت لا أحد حتى بطرس كان يعتبرها محلاً لأول عمارات، قصبه مملكة الروسية الواسعة، وعند فرح القيصر بدخول نينسشانتز في يده بلا سفك دم كثير غير اسمها إلى شلوتبورغ، وفي ٢ آيار الصباح أشهر النصر بشكر الله وأطلق كل المدافع ثلاث مرات، وضرب الشنك بالبنادق، وخبر هذا الفتح وصل سريعاً على موسقو تخت الملوك القديم، وأشهرته بغاية التبجيل والتعظيم.

(١) بالهامش الأيمن من المخطوط كتب المصنف: تيار.

(٢) بالهامش الأيسر من المخطوط كتب المصنف: حاضرة.

ثم إن القيصر بعدما حمد الله على هذا الفتح كما قلنا، اشتغل بالنظر في القلعة والمدافع وآلات الحرب المختلفة الموجودة فيها، وعند المساء في اليوم بعينه ٢ أيار الخفر الذي خلاله القيصر عند فم النيقا أعلم بظهور دننما السويد، وسفن الأعداء تجهل أيضاً وصول الروس إلى نينسشانترزوما توهمت بأي نوع أخذ ذلك المكان فطلقت المدافع إعلاما بقربها، ولما علم القيصر بواسطة الخفر المغلوبة أن هذه علامات الدننما استحسّن أن يخليهم في طغيانهم يعمهون، وأجاب بمدفعين أطلقا من أعلى أسوار القلعة، وهذا الكيد المتضاعف نجح.

ففي مساء خامس أيار أرسلت فلوكة من دننما السويد في النيقا للمتفتيش على مستعملين والعسكر والنواتية الذين كانوا في الفلوكة كانوا بعيدين بمراحل أن يظنوا أن الروس توجد في هذه النواحي، وأرسوا بغية التهامل وأخذ واحد منهم، وأخبر أن هذه الدننما تحت إدارة نائب القبطان نومر الذي غلبه إيراكسين السنة السابقة في لادوغة، وتبع الفلوكة بارجتان بعشرة مدافع قريتا من فم النيقا، ورمتا الهلب أمام مدخل النيقا ١٨٧١؛ وفي انتظار المستعملين والعجز.

ولما علم القيصر بهذه الأحوال عزم أن يغتنم الفائدة الممكنة من ذلك، فذهب في المساء بعينه وأخذ معه مينتشييكوف بصفة رئيس الطبجية، وجملة من العساكر بعدما تكلم في ذلك مع فلد مارشال على ثلاثين سفينة إلى فم النيقا، بقصد أن يهجم بالشدة إذا جنّ الليل على السفينتين المذكورتين، والهواء الذي كان أولاً ساكناً، والسماء المصحية أظهرت تسهيل قصد القيصر، لكن بالسرعة عصف الريح وهاج بقوة إلى نواحي مختلفة.

ثم بعد نصف الليل بدقائق غيمت السماء وأمطرت الغور والنيقا بشدة، وكان عزم بطرس أن هذه السفن تسير بقرب سواحل جزيرة خيرفيسري المعروفة الآن بوسيلسكي أوستروف يعني جزيرة وسيلي في حماية الشجر الذي يسترها، وأن تنقسم إلى قسمين: قسم يهجم في طرف الدفة من جهة البحر، والثاني في الجوانب من جهة ساحل الجزيرة، والقيصر في انتظار الوقت المناسب رتب دننما في مضيق جزيرة فيتساري بقرب المحل الذي بني فيه بعد كترينغوف.

وبعد انتظار بعض ساعات أن الوقت المناسب، وفي وسط الظلمة وزوبعة الليل الموهلة بطرس الذي كان يشتغل للروس والعرق في جبينه هجم من الطرفين معاً على السويد، ومثل القيصر هيح الرؤساء والعسكر تحت برد من الرصاص ورش وجلل مطلوقة ليس فقط من المراكب المهجوم عليها، لكن من باقي الدنما التي نشرت قلوبها لتلحق معركة القتال لكن عوقب بسبب قلة الماء والروس ٤٨٧ هجموا على سفينتي السويد، حيث تكشر لهم المنيا عن أنيابها، وما خلاص السويد المحمول عليهم لا نارهم المخربة ولا اجتهادهم الناشء عن الأياس من البخت الذي ينتظرهم، والقيصر هجم على السفن أولاً، وفي مدة بعض دقائق تملك من السفينتين، ومن ٧٧ رجلا الذين كانوا فيها ١٩ عوقبوا بالموت لعنادهم، وكل الباقين وقعوا في أسر الغالبين الذين أغضبوهم بطول المقاومة وقساوتها، وهذا النصر الذي هو أول ظفر الروس في بلطيق، والذي كان مهماً جداً حتى أن بطرس باشره بنفسه، أشهره ١٠ أيار في المعسكر المنظم تحت شلوتبورغ، وقرب السفينتين المجلوبتين بالظفر إلى أمام القلعة.

وبهذه الفرصة الجنرال غولوفين قبطان باشا أول فارس نشان الحواري القديس أندري قلد بهذا النشان رؤساء الظفر والقيصر وارشافه مينيتيشيكوف، وأنعم على الضباط والعساكر الذين هجموا كل واحد بصفيحة عليها صورة القيصر، ومكتوب فيها الذي لم يكن حاصلًا تحقق.

ولما رأى بطرس نفسه مالكا لمجرى النيفا، عزم على الذب عن مكسبه الجديد بالسلاح، وتهيئة كل الوسائط الكافية لقمع السويد، فبعد إشغال فم النيفا استشار هل يكون محل الذب قلعة شلوتبورغ؟ أو يختار لذلك محلا آخر أقرب إلى البحر؟ وبعد الحل والعقد انحط الرأي على مد شلوتبورغ بسبب ضيق حدودها وقلّة حصانتها، وبعدها عن فم النيفا بمسافة معتبرة بعد أن تبنى قلعة أخرى أقرب إلى البحر؟ ويطرس لأجل (١٦٩٧) اختيار محل مناسب راح في عدة من أصحاب الاعتبار والملاحظة يمتحن الجزائر المتشعبة في النيفا، وهناك سنج لفكره الرأي الصائب أن يؤسس في هذا المحل المتوحد، لكن المظهر منافع عديدة، مدينة كبيرة محصنة، وأن ينعش قفر اينغري وكاريليا بمعيشة ناس يشتغلون بالمتجر والصنائع، ومع أن الغابات الكبيرة والأراضي السبخة الواسعة من كل طرف أدهشت القيصر، لكنها لم تثنه عن إخراج مراده العظيم من القوة إلى الفعل.

فاختار لبناء القلعة جزيرة واطية السطح تسمى اينيساري، يعني جزيرة المعز الموضوعة في النيفا الكبيرة قبل الجزيرة المسماة اليوم بتر بورغسكي سترنا يعني ناحية بتر بورغ القديمة، وحكى أن سلف شارل ١٢<sup>(١)</sup> كان أعطى لأمير من السويد الظاهر أنه الكونت ستينوك أرضاً واسعة إلى فم النيفا، وهذا الأمير المذكور لما سحره حسن هذا المكان ومنافع وضعه بنى فيه أبنية، ورتب ضيعة وأسكن فيها الهريانيين، وسُمى هذا الملك لوست، هو لم يعني «جزيرة الحظ»، ثم بعد مضي سنتين أو ثلاثة مات جملة من سكان الضيعة من البرد في يوم من الخريف قبل ظهور الجليد، وبعد ذلك فاض الماء على السواحل وأغرق الضيعة.

ولما رأى الأمير ضياع أشغاله ومصاريفه، لم يستحسن تجديد العمارات المنهدمة وسمى الأرض التي أنعم بها عليه الملك توفليس هو لم يعني «جزيرة العفريت»، وسافر وترك القرية المنهدمة في زوايا النسيان، وهذه الحكاية من حيث أن أهل العصر لم يقووها، يمكن أنها مخترعة، ومع ذلك هي مطابقة لقساوة هواء بتر بورغ (١٤٩٧)؛ الذي تذلل الآن قليلاً بسبب زيادة السكان، وتنشيف المنتقعات، وقطع الأشجار الجالبة لذلك، وعزم بطرس الكبير على تحصين جزيرة اينيساري، ويعسر اختيار أحسن بسبب أن القلعة ليست فقط محدقة بحفر عادية بل بمياه النيفا الجارية العميقة، ومن طرف الأرض صارت منيعة بسبب أن بها أحدقت المنتقعات الخطرة المغطية للمواضع المسماة من ذلك الوقت بتر بورغسكي سترنا، وتسميها السويد كوي فيساري، يعني «جزيرة القان»، وكذلك الجزائر الأخر القريبة.

وبطرس من غير تضييع الزمان من منذ ١٦ من الشهر المذكور يوم التثليث باشر بنفسه تأسيس قلعة في الأرض ووضع بيديه الحجر الأول من البرج الموضوع

(١) و ابن شارل الحادي عشر، وُلد سنة ١٦٨٢، تولى الملك سنة ١٦٩٧، ونظرًا لصغر سنه تألب ضده ملك الدنمارك وملك بولونيا وقيصر روسيا، فحارب الدنمارك أولاً وانتصر عليها، ثم حارب روسيا فهزمها، ثم سار إلى بلاد بولونيا فانتصر عليها وعزل ملكها وعين مكانه أحد محالفيه، وفي سنة ١٧٠٩ قصد مدينة موسكو فانتصر عليه بطرس الأكبر في واقعة بولتاوا، فاحتفى شارل الثاني عشر بمدينة بندر ببلاد الترك عدة سنين، وأخيرًا خرج من بلاد الترك قهراً وتم قتله سنة ١٧١٨ عند حصاره إحدى بلاد الرويج. انظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، هامش ٢، ص ٣١٢-٣١٣.

على شمال أبواب القديس بطرس الموجودة الآن، والمطل بوجهه الشمالي على بتروبورغسكي سترنا، ولأجل تقوية تحصين القلعة أمام الحائط المفوطة ضد تيار النيفا عزم على بناء سور بصورة نصف الدائرة، وعلى جزيرة لوسينوي المسماة الآن وسيلسكي أوستروف في الطرف الحاد المحصور بالنيفا الصغيرة، والذي يسمى بسبب حصانته سترلكه يعني سهم، بنوا قلعة حصينة، وبعد التحصين عينت جزيرة كوفيساري قاعدة المدينة التي سماها الملك من أول وجودها سانكت بتر بورغ تفاقولا باسم الحواري القديس بطرس.

وكان مينيتشيكوف معاون القيصر في هذا العمل مسمى حاكم المحل ورون بيك كان ناظرًا، وتريزيني الذي أصله إيطالياني، ناظر الطبجية، سمي بالمعمار والعسكر الذين غلبوا نينسشاتنز، (٥٠٧) والذين كانوا مخيمين على سواحل النيفا القرابية على اليمين والخيالة على الشمال، قسموا قسمين: واحد تحت حكم الجنرال الأمير ريبنين بقي في بتر بورغ، والثاني تحت حكم شيريميتوف مشى لحرب قلاع كوپوريا وأم الذي أخذهما بحيث بلا خسارة سبب انقياد كل اينغرى لطاعة بطرس الكبير.

والقيصر في صيف هذه السنة لتفكير رجوع هذه الناحية إلى ملك الروس، رتب ألف رجل عسكراً مشاة أقوى وأحسن ما يكون، وسمى أولاً هذا النظام الأحسن عرضي مينتشييكوف باسم رئيسه، ثم بعد ذلك سماه عرضي اينغرى، ومع هذا العرضي ينتسب بالأصالة إلى العسكر ولا إلى الخفر، له مزايا خفر القيصر، ويسكن دائماً في بتر بورغ من حيث أنه كان خفراً مخصوصاً لمينتشييكوف، وإعلاء جزيرة اينيساري وردم المنتعقات وقطع الغابات وبناء القلعة والبيوت والأشغال الأخر، كل هذا يقتضي أيدي كثيرة، ولهذا السبب استعمل القيصر في ذلك العساكر التي تحت إدارة الأمير ريبنين، ثم أهل اينغرى وكاريلي وناس من أولونيتز ونوفغورد، وأحضر من داخل المملكة الوفا من الصناعات والأسطاوات، وكذلك من القزاق والتاتار والكلموك، وأعطاهم للمساعدة أسراء السويد حتى اجتمع في ذلك الصيف ٤٠٠٠ ألف رجل مختلفة الصنف واللسان للشغل في أساس بتر بورغ، وليس للشغالين الميرية إلا القوت، ولكن لغيرهم زيادة على القوت كراء (٥٠٧) ظاً ثلاثة كوبيك في اليوم، والكوبيك عشر عشر ربل، والكوبيك في ذلك الوقت مثل ١٥ الآن، وأغلب

هذه الشغالة ما كان لهم أولاً لحفر الخنادق وفتح الخلجان، ورفع الشطوط وغير ذلك لا فأس ولا مجرفة ولا معزقة ولا قفه ولا عربة، بل كانوا يحملون التراب الذي يحفرونه بعصي أو بأصابعهم العريانة في أخراج أو في أيديهم أو في حجور قفاطينهم، وبعد الأشغال القاسية هكذا ينامون في الكشوف في أرض رطبة تحت الضباب، والغيوم المطرة.

وكان يتفق لهم أيضاً مقاساة الجوع؛ لأنه لا يسهل دائماً تحصيل المؤنة اللازمة في وقتها لأجل ٤٠٠٠٠ رجل؛ لأن النواحي المحيطة بها كانت مصابة بالحروب، فلم يكن فيها كثير إغاثة، والرياح المخالف عوق سفن الزاد الآتية من داخل روسيا على بركة لادوغة، والأقوات كانت نادرة وغالية خارجاً عن العادة، وبعد ذلك يمكن أن يتصور التعب والاجتهاد الخارق للعادة الذي يساوي تأسيس بتر بورغ، لكن كان ذلك مقتضى الحال إذ ذاك واعتبار راحة روسيا بأجمعها لا يأذن بالتأخر أمام العوائق، ومع كل هذا التعب فالاجتهاد الناشئ عن حضور القيصر وعن حسن الترتيب الذي يفعله بلا انقطاع كان بحيث أن بعد بعض جمع جملة كثيرة من الغابات والمنتفعات عدمت، وأن في محل الدويرتين القديمتين اللتين كانتا فقط مسكن النوع الإنساني تصدى فوق الماء متاريس القلعة المهدة، ومن يوم تأسيس القلعة (١٧١٥) أراد القيصر إسراع الأشغال، فقسم النظريين ستة أشخاص، فأخذ لنفسه قسماً، وفوض الآخر إلى الكبار الموجودين بقربه خصوصاً إلى ناريشكين وتروبتسكي وزوتوف وغولوفكين ومينتشيكوف، ولتذكار هذا الترتيب سميت الأبراج باسم النظار مبتدئة بالبرج الذي على يمين باب ماربترس الذي سمي باسم «القيصر».

وفي مدة الأشغال أشهر بطرس عيد اسمه ٢٩ حزيران، وعمل مينيتشيكوف للقيصر ولللكبار وليمة مفتخرة في المحل الذي بناه في البرج المسمى باسمه، وما كان الباعث لبطرس على بناء هذه المدينة حسن وضعها فقط، بل صلاحية الموضع بالسهولة التامة لدننما تدخل وتخرج وترسي، وبطرس الذي علم بالتجربة بسبب خيبة محاصرة أزوف (١) سنة ١٦٩٥ كيف

(٢) لمزيد من التفاصيل عن حملنا أزوف انظر: بوغانوف، حياة بطرس الأكبر، ترجمة: خيري الضامن، دار التقدم، موسكو، ١٩٩٠، ص ٣٨-٧٣.

نفع دننما في حرب البحر عرف من أول وهلة أن فم النيفا يلزم أن يكون للروسيا مفيداً، وما زال مسدوداً، وما استراح حتى كمل قصده، وذلك أنه لما أحدر من النيفا إلى البحر اشتاق أن يعرف عرفانا كاملاً جريان هذا النهر العظيم، وفي واحدة من سفراته رأى بغتة على فم النيفا عدة جزائر تصلح بغاية اللياقة أن تكون ميناء للمراكب التجارية، وهذه الجزائر كانت مسكن فقراء صيادين، وكانت لطيفة المنظر، وتصور بنفسها مفتاح النهر، وفي الدخول في هذا الموضع يلزم الروس أن تتحصن بالضرورة، ويطرس فهم بالسرعة كل منافع وضع هذه الجزائر بغاية المناسبة بفكرة الحاد، ونظرة الثاقب.

فعزم أن يبني ذلك مدينة، وأخذ في الأشغال بعزمه الماضي غير المنتظر عقد الصلح وغير مبال (١٥١٧) بضعوية فيضان المياه، وبينما خبط الفوس وصياح الشغالة يرن في هذه المواضع الساكتة، ما سكت السويد على نظرها، بل جردوا عساكر ١٢٠٠ من فيبورغ أوائل تموز تحت نظارة الجنرال كزوننيورت الذي كان بعينه في سنة ١٧٠٢ في حرب مع أبركسين لهدم الأبنية المبتدأة، لكن القيصر لما علم الخطر في الوقت خرج من بتر بورغ مع أورطين من الخفر، وأربعة أرط من العسكر، وهذه العساكر لما لاحظت في ٩ تموز العدو من الساحل الآخر من نهر سيسترا، عبرت عبوراً صعباً بمرأى منه، وهجمت عليه بشدة، والسويد مع متانة ملجأهم في أشجار غلب غلبوا واضطروا إلى الرجوع إلى فيبورغ بعدما عدوا كثيراً من أمتعتهم ومدافعهم.

وبواسطة زيادة الشغالة المتكاثرة كل يوم في بتر بورغ، فرغ بناء القلعة في آخر الشهر الرابع، وفي الداخل في طول الجزيرة فخر خندق ليلاً يتعرض لفقد الماء خصوصاً في حالة الحصار لو فرض، وعلى ساحلي هذا الخندق بنيت أربعة صفوف من البيوت مسقفة على عادة الفينونانيين بالعشب أو بقشر شجر القان، وعلى الشط الجنوبي رفعت كنيسة من الخشب نقشها يحكى الرخام الأصفر باسم الحواري ماربطرس، والحواري ماربولص، وهذه الكنيسة كان لها ثلاثة أهلة في أعلاها، وأيام الأحد وأيام الأعياد يرفعون لهب المراكب.

وفي أحد هذه الأهلة معلق ناقوس يضربون به في ساعات الليل والنهار، وفي الساحل الآخر من النهر أمام باب الكنيسة الشمالي بيت صغير لحاكم القلعة من (١٥٢١) دور واحد وبقره بيوت ضباط الخفر، وفي قبلي الكنيسة في

محل بيت حاكم القلعة كان بيت كبير لعسكر الخفر مع فسحة أمامه، وهذه الفسحة كانت تسمى «محل الرقص» بسبب حصان خشب يظهر حاد، وصاري محفوف بأوتاد مذبذبة، وعلى الحصان يوضع العسكري المذبذب ذنبا عظيماً مفرشاً وعلى الصاري واقفاً، وهذه الجرسة كانت موافقة عادة ذلك الوقت، وبقرب بيت العسكر بيت خشب منقوش بكيفية نقش الكنيسة عين أن يكون الترسانة، وفي البيوت الأخرى كان مسكن قسس كنيسة ماربطرس وبولص وكنيسة اللوتير يانيين ونوابهم وكونسلارية «الخفر ومخازن الأقوات»، وفي برج منيتشيكوف بيت لطيف صغير كان معداً للعقاير والأدوية الميرية، وبابه الموضوع في الجدار بين برج القيصر وبرج منيتشيكوف يوصل إلى قنطرة خشب يمكن رفعها وإلى فرجة بين القلعة وجزيرة كوفي التي صارت جزيرة بتربورغ، وكل يوم من وقت أن تدق الطرنبية لإيقاظ العسكر حتى تدق لانصرافهم بنديرة القيصر تتهدى على برجه، وأيام الأعياد والمواسم العظيمة ينشر العلم الذي بصورة نسر برأسين ماسكاً بمخلبه، وبمنقاره على أربعة بحور، البحر الأبيض، والبحر الأسود، وبحر كيلان، وبحر بلطيق، ونشر البنديرة أو طيها علامة على ابتداء أشغال المدينة أو تمامها وطلق مدفع يدل على هاتين الحالتين.

وفي الساعة الحادية عشر يطلق مدفع للغداء، وحيث كانت جزيرة اينيساري محفوفة بحيطان قوية، أراد القيصر أن يكون قريباً من القلعة بقدر الإمكان ليمتنع الأشغال غالباً، فبنى ٥٢/١ ظاً في جزيرة بتربورغ بقرب ساحل النيفا الكبير بنحو مئتي باع، ممن برجه في محل كان في حكم السويد دويرة صياد بيتاً من خشب عرضه ثمانية أبعاد وسمكه ثلاثة، ومجدد روسيا لما كان عدواً للترفة والتزايد أعطى لنفسه مثل القناعة، وسكن في أوستين بينهما مدخل ومطبخ، والكل مدهون بلون أحمر مخطط بالأبيض على ذوق الهولنديين، لأجل أن يظهر حيطاناً من الأجر المكشوف، وفي الداخل مزين بقماش غليظ ملون بالبياض، وأثاث البيت موافق لبساطته، وفي وسط السقف يرى هاون، وفي كل ركن بنبة جاهزة للطلق، وهذه الأشياء الثلاثة كانت مصنوعة من الخشب المصور.

وهذا كان أول قصر لبطرس الكبير في بتر بورغ، وما كان في ذلك المسكن  
الوضيع الإجليلاً ورفيعاً، وبنى مينيتشيكوف محب الترفه والفخر أمام دويرة  
القصر بيتاً من الخشب أيضاً، لكنه واسع، وفيه أشهر الأعياد ويلاقي القيصر  
بسبب صغريته، وهذان البيتان مع الخيام والأخصاص المبنية هنا وهناك  
بلا نظام لأجل كن الشغالين في جزيرة بتر بورغ مدة الشتاء، نصبت كل  
المدينة المولودة في سنة ١٧٠٣ ويطرس لما رمى أساس مدينته، ورأى إمكان  
تحصيل دنما، سافر أول تشرين أول إلى «لادينوي بوله» الذي سماها منجرة  
أولونيتز، وابتدأ فيها ببناء ٦ فرقيطات و٩ قبقات<sup>(١)</sup>، ثم رجع إلى بتر بورغ في  
الفرقيطة المسماة «ايتاندار» التي أنزلها من المنجرة نفسها والمصحوبة بست قنچ  
جديدة أيضاً، وفي مسافة الطريق (١٥٣١) وبسبب الريح العاصف الشديد بتخت  
الفرقيطة في الرمل، وحصل فيها عوار أصح عند وصولها، وهذه أول مرة أن  
مركب حرب من هذا الجنس تقوم على ماء النيفا وتعمر على سواحلها، والقلق  
الذي كان يجده القيصر لتكميل دنما في بحر بلطيق بعثه في تلك السنة  
بعينها سنة ١٧٠٣ أن ينشئ في خط نوفغورد، وفي ملتقى نهر كياس منجرة  
جديدة خرج فيها من الخريف ٣ قبقات، وإلى مبلغ ٣٠٠ مركب مختلفة وغراب  
لنقل، وأكثرها بناها الأوسطا جريل مينتشيوكوف، الذي تعلم السفانة مع  
القيصر في هولاند، وقلّة الملاحين عطل بطرس، لكنه اجتث هذا العائق بأن  
دعى إلى خدمته ضباطاً من هولاند ومن البندقية، ومن بلاد مسكونة بأهم  
أصلهم من الصقلب خصوصاً من سواحل البندقية.

ثم أخذ لتكميل ذلك عدة من النواتية الغرباء الموجودين في السفن  
الواردة إلى أرخانكيل، ولما علم القيصر بعد رجوعه إلى بتر بورغ بسفر  
دنما القبطان «نومير» كالتى كانت مدة الصيف في القرصنة أمام فم النيفا  
إلى قيبورغ لتقضي فيها الشتاء، سافر مع أن خور الفينلاد ابتدأ في التجلد في  
قنجة واحدة إلى جزيرة ريتساري الضيقة الطويلة المعروفة بين الروس من زمان  
طويل باسم كوتلين، والموضوعة على ٣٠ فرست من بتر بورغ وسبر الجزيرة  
وقاس مشعبها.

(١) ضرب عليها المصنف.

وبعدما امتحنها بإمعان النظر عزم على تحصينها، وذلك أنه لما رمى أساس مدينة يلزم أن يجعلها في ملجأ من فتكات الأعداء الذين هم (٥٣٧هـ)؛ أيضاً ملاك البحر، ورجع القيصر إلى بتر بورغ وقلبه مشغول بهذا الفكر، وكان خلى في الجزيرة منيشكوف مع أربع أورط، وقسم على الأخر مساكن الشتاء في الأخطاط المجاورة، وسافر إلى موسكو بعدما حصن أسوار القلعة بعدة ٣٠٠ مدفع من النحاس، والسبع معادن كلها تقريباً مغتومة من السويد، وقبل سفر القيصر إلى موسكو أبطل عادة مستعملة في روسيا منذ عدة قرون، وذلك السجود للقيصر كلما يلاقي، وهذه العادة التي يمكن أن أصلها من وقت حكم التاتار كانت مكروهة جداً لبطرس خصوصاً في وسط الوحل، والمنتقعات، فلذلك حُرِّج على فعلها، والعامّة المتعودون كل الأزمان على هذه التحية لشخص الملك شق عليهم الترك، وكثير من الناس إذا رأوا القيصر يخرون سجداً بلا إرادة، وتأبى الطباع على الناقل، وهذا أجأ القيصر إلى التهديد والعقاب الأليم لكل من يتجاسر من الآن وما بعد أن يفتأت عليه، ويخالف ما تقدم إليه، وبعد سفر القيصر ببعض أيام، وصلت بتر بورغ أول مرة بعد تأسيسها سفينة من هولاند، رئيس هذه السفينة كان يجيئ كل سنة إلى خور فينلاد، حيث كان السويد حكام البلاد يقطع أخشاب العمارة على سواحل نهر سيستره حيث يوجد الآن «سيستورسك» أو «سيستريبك»، ووصل لهذا الغرض بعد وضع أساس قلعة بتر بورغ بأسبوعين أو ثلاثة، ويتبعه اثني عشر مركباً تجارية، لكن لما علم الأخبار المعروفة من خصوص «دنما» القبطان نوميرس التي عاقت هذه المراكب عزم أن يروح لمقابلة القيصر للتماس اذنه في الاستمرار على قطع الخشب، لكن لما وصل كان القيصر وحاكم البلد غائبين (١٥٤٧) منذ أيام، وراح يام وكوريا اللتين فتحها شيريميتوف ولم يقدر أن يرى القيصر، لكن لما سمع برجوع الحاكم جوزي ليس فقط بالإذن له في قطع الشجر من المحل المذكور، بل بحثه على أن يجلب إلى بتر بورغ السفن الموسوقة بالبضائع، والرئيس لما انسحر بهذا القبول لحق سفنه، وأراد أن يدخل النيقا، لكن لما لم يقدر أن ينال إذن نوميرس الذي يخاف أن الروس تتنبه لتسليح سفن هولاند وتتقوى بها عليه، قال له إن يقضي الليل مع ستة من سفنه في خلال دنما السويد، ويصل إلى نهر سيستره على السواحل التي فيها

بعض عراضى روس، من وقت هزيمة الجنرال كروينورت.

ووصلت واحدة من هذه السفن إلى بتر بورغ في تشرين الثاني لما وجدت بغتة بعيدة من دنما نوميرس، وكان النيقا والخور عاريين إذ ذاك من الجليد، والسفينينة موسوقة وملحا وخمزا، فقابل منيشيكوف الذي يفهم مقاصد سيده السديدة ويحصلها بالهمة العتيدة، الرئيس بغاية البشر والبشاشة، ونهاية الطلاقة والهشاشة، ودعاه إلى طعامه المفتخر وأهدى له خمسمائة مجر، وأعطى لكل نوتي ثلثمائة قطعة، واشترى كل وسق السفينينة ثم وعد أن يهدي لرئيس المركب الثانية التي تجيء بتر بورغ ثلاث مئة مجر، ولرئيس الثالثة مئة وخمسين، ومع توارد الأشغال والدواعي المقتضية ليس فقط لا لتفات القيصر، بل لحضوره أيضا كان محط نظره تحصيل بتر بورغ بحيث يظهر أنه صرف فيه كل اعتناؤه واجتهاده أمرا مشافهة إن كان حاضرا، وبالكتابة إن كان غائبا:

اعلموا أنني لكم حافظ                      شاهدا ما كنت أو غائبا

وبينما كان يخترع الأشياء النافعة لإصلاح داخل المملكة كان ١٥٤٦ظا، يربط التعلقات الخارجية، ويستعد لحرب تكون قبل الربيع وينزل سفنا وغلايين من كل نوع إلى نهر دون، وبمجرد ما وصل من موسكو إلى فورنيج أرسل إلى منيشيكوف، أن يحصن جزيرة كوتلين، وهذا القصد إذا فعل قبلي الجزيرة، خصوصا من جهة المشعب لا يخاف من تقدم سفن الأعداء إلى بتر بورغ ومنيشيكوف لما وصله الأمر سارع إلى الجزيرة وبنى فيها لتحصينها قلعة خارجة عن العادة، قليلة النظر، وكل المواد اللازمة للعمارة وصلت من بتر بورغ على الجليد بحسب أوامر الحاكم، والأشغال في وقت واحد تقدمت وحصلت بالاجتهاد بعينه والسرعة بعينها في الصيف بحيث أنه عن قريب ارتفع فوق قفر جليد خور فينلاندا على لسان الأرض الذي وصفناه دائرة من الخشب أو حصن من ثلاثة أدوار كديدبان مهول مهدد حارس على مدخل مشعب النيقا، وأساس هذا الحصن صناديق من الخشب مملوءة بحجارة وملقاة في قعر الماء، ومع صعوبة البرد المتتابع كان في هذا الشغل عدة آلاف من الشغالة، بعضهم في البناء، وبعضهم في نقل المواد، وهلك ثمانمائة ألف

فرس بعدم الزاد وبالعت، وهلك أيضاً كثير من الناس، وهذا كان قريانياً لازماً لحفظ بتر بورغ التي حققت فتوحات بطرس المستقبلية في الدنما وسواحل بلطيق، وقبل تحلل النيفا كملت الأجزاء الأصلية من الحصن والقصبة المولودة كانت في حصن من جهة البحر، وصارت السكان كل يوم تزيده زيادة على الروس، كالتجار الآتين من نوفغورد بالغرباء من الاستونيا والليتونيا، وحتى من السويد المساكين الذين (١٥٥١) حرموا بواسطة الحرب من المسكن ومن الصانع والأسطاوات والنواتية الذين جاؤوا أفواجا بعيالهم، وتركوا أوطانهم، والتاتار والكلموك المدعوون من بعيد لأشغال القلعة بقوا بكثرة في المدينة واكتسبوا زيادة على القوت ما قدروا به على بناء البيوت، وبهذه المثابة عمرت المدينة وصارت منيعة حصينة، وفرغت المنجرة في أقل من سنة، وهذه المنجرة ما كانت مشتملة في ذلك الوقت إلا على عشرة خطوط، والخط المحل الذي فيه تبنى السفنية، وعند رجوع القيصر من موسكوا شاهد عدم انتظام وضع البيوت، فأمر أن تجعل الحارات معتدلة، وفي هذا الوقت ما أوسع حارات المدينة وأعدلها والطفها وأجملها، لم تنزل ساحرة لعيون النظار. خصوصاً سياح الأقطار، وأصحاب الأسفار الذين تروق أعينهم هذه الآثار.

وفي سنة ١٧٠٦ فاض النيفا، ومع الفيضان ما مكث إلا ثلاث ساعات سبب الخراب بسبب أن البيوت كانت حينئذ واطية، فطغى عليها الماء، فصارت جارية لا تحمل السكان، ولم يجد الأهالي عاصماً من الماء إلا الركوب في السفن، كما يتداوى شارب الخمر بالخمر، ومع وقوع الحريق التي اجتثت عدة بيوت عظيمة من الأساس سنة ١٧٠٧، كان وجود القيصر كالجود، فأطفأ النار حتى صارت برداً وسلاماً، وتلافى التلف الذي تسامى، وفي سنة ١٧٠٨، يعني بعد خمس سنين من تأسيس المدينة استحققت بتر بورغ أن تسمى مدينة أوربيية، واشتغل السكان الذين أغلبهم غرباء بأجور المعاش وغيره مثل غيرهم:

واتخذ الناس كلهم سكناً ومثل الأرض كلها داراً

ولما رأى القيصر نتيجة غراسة، وقوة بأسه، اشتهى أن يرى ذلك لأناسه، (١٥٥١)؛ فعزم أقاربه من موسقوا لرؤية مدينته الجديدة، عروس المدن التي ما رأوها بعد، وإنما سمعوا عنها، وليس الخبر كالعيان:

ولكن للعيان لطيف معنى

به سأل المعايينة الكليم

وقد حصل في موسقوا إذ ذاك بعض تنقلات أوروبية وتغييرات تمدنية، ولكن العوائد القديمة باقية إلى الآن عموماً، وذهب القيصر للقاء عائلته الملكية من مسافة ٨ فرست، ودخل معهم بموكب عظيم في شليسيلبورغ، ومن هناك بعد خمسة أيام نزل القيصر معهم في السفن التي جاؤوا فيها والمزينة بالبنديرات، وتوجهوا إلى بتربورغ ولاقاهم قبطان باشا ابركسين من مسافة ٤ فرست في زورق، وسلم عليهم بطلق المدافع، وعند وصول هؤلاء الفخام والكبرا العظام إلى بتربورغ، سلمت عليهم القلعة بالمدافع، ونزلوا بيت ميني شيكوف، وفرجهم القيصر على المدينة، وما فيها من الأبنية المتينة، وقادهم إلى كرونسلوت ثلاثة أيام، ومع فرح القيصر بحضورهم أشد الفرح، واعتنائه بحظهم وسرورهم ما عاقت الأشغال ولا فترت الأعمال. بل زادت الفتكات في نواحي البلاد، وحامت العقبان الكواسر على بلاد الفينلاد، فأرسل القيصر من كرونسلوت إلى بورغو على ساحل خورفينلاد القونت بوتزيس فدمروها، ورجع بالظفر مع وجود دنما السويد في فيبورغ، ثم رجع ذلك القونت المذكور لتخريب قرى السويد التي على جزائر بيريسوفيا وعلى نواحي فيبورغ، فجعجع بها، لكن السويد مع هذا كانوا دائماً عازمين على التآلب والتجيش لأخذ بتربورغ والانتقام من أعدائهم القاهرين، فأرسل شارل ١٢ سنة ١٧٠٧ الجنرال لوبييكر بعسكر جرار ١٤٠٠٠، و١٥٦١، ولما علم بطرس ترك مدينته الجديدة وذهبت عائلته إلى موسقو، وصار الناس بين الرجاء والخوف، وكثير من شون الغلال نقل إلى القلعة، وتقدم لوبييكر بوطة عظيمة وحملة جسيمة وقطع العقبات واقتحم الصعوبات حتى تملك من ساحل النيا الشمالي، لكن بسعد المدينة غلط لوبييكر غلطا عظيماً أدى إلى هلاك جيشه حيث دخل في بلاد اينغرى المقفرة المغطاة بالغابات والمنتقعات ظاناً أن يجد القوات الكافي لعسكره، فخاب ظنه وعاد وبال غلظه عليه «خطأ الطبيب إصابة الأقدار»، ومع أنه غلب أولاً عدوه فقد وجد عدواً قاهراً لا يقاقل:

وأنكى عدويك الذي لا تقاقله

وأنفس خطيک الذي لا تتاله

وهو البرد والجوع الخارج عن العادة، المتعدي حتى إلى الضباط الذين ذبحوا الخيول وأكلوها، وهذا الجنرال لم يتقدم إلى بتر بورغ، بل توغل في بلاد اينغري المسكونة ليجد فيها قوت العسكر، لكن ما كان العود أحمد، لأن القوزاق بأمر ابركسين حرقوا هذه القرى ليسدوا على العدو طريق الخلاص، ففرز ولات حين مناص، وأخذ الروس يقتلون السويد ويقولون لنار غضبهم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟ فكانت هذه المصيبة لهم فائدة قشيبته، بذات قضت الأيام ما بين أهلها، مصائب قوم عند قوم فوائد، ولم يكن ملجأ السويد إلا البحر الغضبان المتماوج، كبير الصواعق، ففرز من فرز، واختار صاعقة البحار ولا صاعقة العدو الأمر، لكن اختلاف الرياح أذن للروس بالإرباح، وعاق السويد عن ركوب البحر، وأرسل ابركسين خلفهم، ولحقت عساكره أورطتين من السويد لما نزلوا السفن فاستأصلوها<sup>(١)</sup>:

٥٦١ ظارماني الدهر بالأرزاء حتى فوادي في غشاء من نبال  
فكنت إذا أصابني سهام تكسرت النصال على النصال

وهكذا فرغت غزوة لوييكر المهولة على بتر بورغ أولاً ثم أخراً على السويد، فعاد كيدهم في نحرهم، وياؤوا بمكرهم، ومع أنهم أربهوا المدينة وأضروا بها على الحقيقة، فقد جعلوها في حماية منهم حيث أيسوا من التطلع لها، ولما أحدثت هذه الحرب خراب نواحي المدينة واحرقها، أراد القيصر أن يتلافى التلف، ويعمر هذه النواحي بالروس الأصلية، فاستحسن أن يقسم الأراضي، فأقطع لزوجته خمس ضياع، ولشاهزاده ولده الكسي بعض ضياع، وكذلك لشاهزاده أخته نتاليا، وأيضا أقطع بعض الناس، وكان أكثر الناس إقطاعاً مينيشيكوف، فإنه أخذ جزءاً من أحد عشر جزءاً من بلاد اينغري، وقسمت الروسية أول مرة إلى ولايات ١٨ كانون الأول سنة ١٧٠٨، وجعلت بتر بورغ رأس ولاية اينغري المشتملة على ٣٢ مدينة.

وفي سنة ١٧٠٩، لما تمكن بطرس من بلاد اينغري أمر أن تسكن الوزراء والكبراء في بتر بورغ، ومن ذلك الوقت صارت تخت المملكة، وسفراً وأخباروا

(١) الأبيات منسوبة لأبي الطيب المتسي، انظر الديوان، ص ٢٥٣.

أنه بنى مدينة على البحر كل يوم تزيد، ورغبوا بكل وجه السياحين والتجار، وعقدوا التجارة مع فرانسوا وأعلموا إيطاليا أنها إذا توالى سفنها التجارية إلى بتر بورغ لا تدفع إلا نصف المكس، وأراد أن يسلك سبيلاً للتجارة داخل المملكة، وأرسل لكشف الطرق البحرية لكن ما حصل مانع فترك، وفي سنة ١٧٠٩، ٣٠ تشرين الثاني أشهر عيد نشان ماراندريا، وعملت ضيافة كبيرة عند مينيشيكوف، حضرها الوزراء والكبراء والضباط البحرية وغيرهم، وفي الليل عملت حريقة عجيبة الشكل، صورت فيها صورة مناسبة لوقائع السنة، وفي الآخر حمالة كبيرة معلق فيها (١٧٠٧) هذا النشان، وهذا اللعب سر الناظرين وأعجبهم حيث إن أغلبهم ما رأى هذا النوع البديع، إذ من المعلوم أن الحريقة من الأشياء التي ما رؤيت قبل بطرس في روسيا.

وفي ٦ كانون الأول في الترسانة بمراى محفل عظيم من المتفرجين ابتداء بيده بناء بارجة وسماها «بولتافا» بأربعة وعشرين مدفعا.

وفي سنة ١٧١٠ أرسل هذا العنقاء ابركسين لحصار فيبورغ مرة ثانية؛ لأن المرة الأولى الواقعة في سنة ١٧٠٦ ما أنتجت، وذلك أن الجنرال لوبيكرما لم يتفكر أن الروس يتعدون الحدود إلى محاصرة محله، توغل بعساكره في الفينلاد في المساكن الأحاسن، فاغتنم الروسية هذه الفرصة وحاصروا المدينة، وكان مع ابركسين ٥٠٠٠ رجل، و١٠ مدافع بثقل ١٢ و١٣ هوان، وذهب على الجليد ١٥ أذار، ووصل إلى القلعة وتمكن من برج بواسطته قطع على المحاصرين كل وسائل الذهاب والتردد إلى داخل الفينلاد، وأطلقوا عليهم النيران، وعسكوا عليهم الأفكار حتى رأوا الأياس، لكن المحاصرين كانوا مضطرين إلى المدد من بتر بورغ، وما كان معهم بعد ذلك إلا زاد ثلاثة أيام، والجليد لا يمكن العبور عليه في ذلك الوقت الذي هو وقت التحلل، فما أشد فرح ابركسين حين رأى ٩ أيار المدد الذي حمل له الزاد والمدافع والجيوش، وهذا المدد من أعجب ما يحفظ في التاريخ، ويبدل على التمدن النير الذي لمع في روسيا بواسطة ركن كوكبها الثاقب، وجعلها بين أخواتها في أعلى المراتب، وذلك أن القيصر لما علم احتياج التجريدة التي أرسلها للحصار أرسل في وقت تحلل النيفا ٢٥ نيسان الدنما التي قضت الشتا في بتر بورغ، وأرسل

مراكب قلعية تحت إدارة كرويس، ومراكب طويلة تحت إدارة بوتري، وفي هذه السفن ١٠٠،٠٠، فتقدم في رأس الدنما ٧ فارقيطات كل واحدة فيها ٢٤ مدفعًا، وفي وسطها بنديرة ٥٧/١، كرويس، لكن الجليد عاق عبور الدنما وظهر استحالة الوصول إلى فيبورغ، وبطرس طلاع الثايبا، ومقتمح المنيا دائما يستسهل الصعب ويستهنون الخطب، تفكر في استنباط طريق لإزالة وعر هذه الطريق بعد طول المعافرة وشدة المعافرة، وانحط الأمر على رأي القيصر أن يتقدم السفن صادمة للجليد، وكان في الرأس فارقيطة بأربعة وعشرين مدفعًا ومنجة باليومب، ونشرت هاتان السفينتان الشراع وعامتا في جبال من جليد بالاصطدام، وفتحتا فيه طريق للباقي، فانظر لحرب هذا الجليد مع الجليد، ووصول هذا المدد غير الأمر وقوى الحصار، لكن القيصر أخذه القلق وذهب بنفسه في ١١ حزيران، ووصل في وقت ما عرف حاكم القلعة أنه لا يقدر على المقاومة، ووصول القيصر أعجل الأمر، وفصل النزاع، ودخلت عساكريريا وبرازانسكي القلعة ظافرين، وأعطى لايركسين جزاء على ذلك نشان ماراندريا.

قلت: وقد مررت عند رجوعي من هلزن فورس على بورغو، وهي مدينة حسنة، يلوح فيها آثار العمارة، وبها سوق وتجار ومخازن ومضاييف، وعلى فيبورغ وهي مدينة حصينة وقلعتها منيعة وابنيتهها بديدة تشابه مباني بتربورغ، وبنحو ميل منها حديقة كبيرة تسمى «مون ريبوس» للأمير نقولته، وقد قضيت في هذه الحديقة بعض ساعات أنيسة، ونظرت ما فيها من المصانع النفيسة، فمن ذلك البرج الظريف على خندق لطيف، ومن ذلك الصخور العظيمة التي فيها المغارات، وهناك حنقية ماء باردة ومنارة عالية تنظر منها المدينة وعمود منصوب على أعلى نصبه الأمير نقولته أثر لبعض بلدياته ١٥٨١/١ الفرنسية الذين جاؤوا الروسية، وحماهم القيصر اسكندر، وأكرم مشواهم، وفي المدينة تل من الصخر عالٍ صعده، ورأيت فيه حجرا كبيرا منقوش على سطحه «كلمة لاتينية لا بد أن تكتب بخط اليد»، يعني بطرس الأول؛ لأن بطرس لما وصل صعده على هذا الحجر ونصب خيمته، وعندما أخذ القلعة نقش اسمه، وكلا المدينتين الآن في حكم الروس، لأنهم دائما في التقدم.

وفي فيبورغ كحك مشهور باسمها يجلبه المسافرون إلى بتربورغ، لذيق الطعم، وبعض الخبازين في بتربورغ يقلده، ولكن شتان، فحق أن يقال له: «لقد حكيت ولكن فاتك الشنب».

وينواحي فيبورغ فؤارة ايمترا، وهي فؤارة عظيمة يتصاعد فيها الماء بقوة عظيمة، وينحدر الماء من أعلى الصخور من محل متسع كالبركة إلى مضيق بين الصخور، لم تزل أعجوبة للمسافرين ونزهة للناظرين، وقد رأيتها فكانت صيقلاً لبصري وقرة لنظري، وبالجملة ففي الفيبلاد ينابيع وفوارات رأيت بعضها، ولكن هذه الأحسن والأعظم، و«كل الصيد في جوف الفرا» ومن قوة الماء تتصور أحجار بصور مختلفة، أحجار تبيعها الصغار مع جدتها كانتيكة المصريين فيشترتها السياحون، وربما هادوا بها، والتهادي قد يكون بالأشياء التافهة لغرابيتها وندرتها، ونزلت هناك من سلالم خشب عدتها خمسون درجة، ومشيت بقرب الصخر حول درابزي، ووصلت في الآخر إلى كشك لطيف، وهناك مضيفة جديدة، ذكر لي صاحبها أنها أنشئت من مدة شهر ونصف، وهناك في الأعلى قصر صغير ومجلس، وكثير من الناس الزائرين يكتبون أسماءهم في الكشكات وتاريخ زيارتهم، وقد فعلت مثلهم.

وعلى ذكر الفوارات، فنذكر الفوارات الموجودة في بترغوف بقرب بتربورغ، يسكن فيه القيصر وعائلته في الصيف قبل الذهاب إلى «تسارسكي سلو»، وهو مشتمل على عيون كثيرة ويناابيع جميلة، بعضها يخرج من أفواه الأسود المصورة وبعضها من غير ذلك، وهناك في جميع النواحي من بستانه الكبير فساقى كبيرة تجري فيها العيون، وأعلى الفوارات فؤارة سمسمون أم القصر القيصري، يرتفع فيها الماء جداً، ويقال إنه كان يرتفع في أيام القيصرة كترين الثانية إلى حذا سقف القصر.

وفي أول تموز ذهبت هناك، وتفرجت على الوعدة التي عملت لإشهار فرح ولادة القيصرة، فما أحسنها من وقدة بين سطور الأشجار وبعضها في خلال العيون، بحيث أن الماء يجري فوق القناديل الموقودة.

وفي ٢٧ حزيران، اليوم الذي فيه أخذت بولتافا<sup>(١)</sup>، أديت مراسم العبادة والشكر لله. وبعد ذلك نشرت في الميدان البيارق المأخوذة من فيبورغ. وبعد ذلك أطلقت المدافع (٥٨/١) من القلعة والسفن، وفي المساء عملت على النيفا حريقة، وامتد العيد لما بعد نصف الليل، وأمر أن يُشهر هذا العيد كل عام.

وفي ٣٠ حزيران زحف الرئيس بروس على كيكسهولم، وأخذها ٨ أيلول، وافتتحها أطاعت كل مملكة كاريلي، فأقامة القيصر في بتر بورغ في سنة ١٧١٠ ما كانت إلا أعياداً:

أولاً: بسبب تضاعف الفتوحات هذه السنة، فمن أول كانون الثاني قبل أخذ فيبورغ أخذ الروس البنيك، وفي ١٠ حزيران فتح شريميتيف ريفاً، وفي ٨ آب خضعت قلعة دوناموند، وكذلك بپرنو في ١٥، وفي ١٣ أيلول كان حصار ارينسبورغ وفي ٢٩ تملك الجنرال باور من ريفال، وعلى هذا المنوال أطاعت كل بلاد استونيا وليفونيا.

قلت: وعند ذهابي إلى بلاد الفينلاد في سفينة البخار، أرسيت على ريفال ومكثت فيها نحو أسبوع. وهي بلد قديمة وبيوتها كالحصون بناها الشجعان في قديم الزمان، وبها كنيسة لوتيريانية قديمة جداً، حتى إنها أشرفت على الخراب، لكن العمارة فيها ومنارتها عالية جداً، صعدها ونظرات فيها المدينة والمنظر لطيف.

وفي هذه المدينة حديقة كبيرة للتفسيح تسمى «كاترين دال»، وفي هذه الحديقة بيت بناه بطرس الكبير، ورأيت فيه بعض آثاره من سفر وفرش إلى غير ذلك، وهناك قصر كبير بنته كاترين الثانية، وفي وقت عبوري كان مُعداً للسكنى شاه زادة قسطنطين وأخيه نقولته، ولدي القيصر الحالي.

ومن عجائب هذه المدينة التي ترغب السياحون في رؤيتها جسد الأمير دكروا، كان في زمن بطرس الكبير وخان، فغضب عليه بطرس وأمر بعدم

---

(١) Poltava تقع في الجنوب الغربي من مدينة خركوف Kharkov من إقليم أوكرانيا، أو إلى الجنوب الشرقي من كييف Kiev. انظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، هامش ١، ص ٣١٣.

دفنه فوضع في سرداب في الكنيسة لافي القبر، ثم وجد من نحو ثلاثين سنة  
١٥٩١م] متحجراً كالمومياء، فأبقي عبرة للناظرين، وفرجه للمسافرين. ووضِع  
في دهليز الكنيسة، وقد رأيته وجسده ناشف كالجلد ولونه باهت أصفَر.

**وثانياً:** بسبب تزوج أمير كورلاند بنت أخت القيصر شاهزاده حنا، وذلك أن  
١٤ حزيران جاءت سفراء لخطبتها، والقيصر الذي يحب التعلق بباقي  
الدول، كان رتب ذلك مع ملك البروسيا عم الأمير، وذلك أن بطرس لما  
أخذ بولتاقاً وهزم عساكر شل ١٢، ما قنع بغلبة العدو خارج بلاده، بل  
أراد أن يهجم عليه في نفس بلاده ليطمئنه ما يريد من إراحة البلاد وصلاح  
العباد، فذهب بهذا الصدد إلى البروسيا مازاً على بلاد اللين، وطلب من  
الملك فريدريك المعاونة على السويد، لكن الملك لما لم يرفي تلك المعاونة  
نفعاً لبلاده، حاول ومع ذلك ما منع مرور عسكر الروس على بلاده  
للهجوم على السويد، وعقد المحبة مع بطرس، وأكدها بعده أن يزوج  
ابن أخيه لبنت أخت القيصر، ولهذا السبب أعطى بطرس ولاية كورلاند  
للأمير متوارثته، ولما رجع إلى البروسيا مر على مدينة كورلاند، ولما وصل  
الأمير بنفسه إلى ريفا أهدى له منيشيكوف حجراً أزرقاً شفافاً عجيباً  
ثمنه ٥٠٠٠٠ مجر وحصاناً تركياً، وفراء ثمينة وتحفاً أخرى، وألفي برميل  
دقيق، واضطر الأمير بسبب الوباء الذي خرب بلاد ليفونيا واستونيا أن  
يعمل كرتينته قبل نارفاً.

وأمر القيصر بإعداد اللوازم لإقامته، وأرسل له خيمتين مزينتين، و ٤٠٠  
فارس لحفظه و ٥٠٠ لحراسة الموضع الذي هو فيه، ووصله هناك أول مكتوب  
من خطيبته، وفي ١٥ آب دخل بتر بورغ في موكب عظيم، وقدمه بطرس إلى  
خطيبته وأما وصار يراهم كل يوم، وبهذه الفرصة زادت ٥٩١ ظ: الأفراح، ففي  
٢٦ آب ذهب أهل القصر إلى شليسبورغ لإشهار يوم القلعة.

وفي ٩ تشرين الأول عمل منيشيكوف ليلة رقص، وفي ١٠ عمل مثله  
الجنرال ابركسين، وفي ١١ عمل مثله الأمير تشاركاسكي، ثم عمل قوم  
آخر في الأيام التابعة، وفي الآخر عمل منيشكوف ليلة رقص ثانية، ودام

الرقص إلى الصبح، ومن ١٧ إلى ٢٣ صمم القيصر على رؤية كيكسهولهم، ولم تلهه هذه الحظوظ عن أفكاره، ولم تغتريه الأفراح عن السعي إلى بلوغ أوطاره، وبعد أسبوع من رجوعه في ٢١ تشرين الأول أشهر عقد الزواج بغاية الفخر والطنطنة، وتفصيل ذلك طويل الشرح، وأمر بإعداد اللوازم المعتبرة، هذا مع أنه كان يميل للتقشف والبساطة، وبنى بطرس في هذه السنة ١٧١٠، في محل يسمى فيكتورى-يعني النصر- دير إسكندر نيفسكي، وهذا الدير كبير جداً، وهو في آخر الشارع المسمى نيفسكي بروسبكت.

وفي عيد اسم إسكندر كل الناس تذهب لزيارة ذلك الدير أفواجاً أفواجا، وزيادة على القصور والأبنية في المدينة، أحدث القيصر قصوراً خارجها، فأول ذلك قصر كاتيرينغوف باسم القيصرة وأهداه لها، وهناك آثار لبطرس وكتب وساعة، وغير ذلك، كل ذلك محفوظ إبقاءً لأثر هذا الرجل الفريد، وكاتيرينغوف الآن من أحسن المنتزهات فيه قصور عديدة، وفيه جنيحة كبيرة، تذهب الناس إليها للتفسيح خصوصاً يوم الأحد، وفي أول آيار وخامس عشرة تذهب العائلة القيصريّة كل سنة، ويعد يوم مشهود، كثير الزحام والفرح؛ لأن ذلك أول إخصار الأرض وإشراق النبات، ثم يقل الزحام بعد ذلك:

كالبدرا لا يرتاد وهو منور وتروده الأبصار وهو هلال

ثم بنى في هذه السنة أيضاً في المدينة بيتاً للبوصلطة لتقدر الواصلون أن تنزل فيه ولا يضيعون الزمن في (٦٠/١) وتفتيش منزل، وكذلك رتب معاملاً للأجر قريبة من المدينة بحسب الإمكان لغلو الأجر بسبب بعد المسافة، ولافتراس الحريقة المتتابعة بيوت الخشب. وفي سنة ١٧١٢، أنزل من المنجرة بموكب عظيم، الغليون الكبير المسمى بولتافا الذي ابتدئ فيه الشغل سنة ١٧٠٧، ولا زال في كل سنة ينشئ، وينزل سفناً عظيمة بمدافع جسيمة، خصوصاً في أيام أعياده وأعياد أهل بيته.

وقد رأيت إنزال سفينتين من المنجرة بتربورغ أحدهما باسم إسكندر ولي العهد، والثاني باسم زوجته ماريّة، واجتمع الجم الغفير، ولكن ما أنزلوهما إلا عند حضور القيصر والعائلة الإمبراطورية، وذلك سنة تزوج ولي العهد،

ولا تعب ولا علاج في إنزالهما بل أزلقوهما مع القطع الخشب التي تسندهما تحت، فلما عامتا ذهبت هذه القطع وعامت، وعند النزول ضربوا الموسيقى، ثم أطلقوا المدافع، وهاتان السفينتان كبيرتان، ومن مدة سنتين الشغل فيهما.

وفي سنة ١٧١٣ حاصر القيصر هلزينفورس، ثم رجع إلى بتربورغ، قلت: هلزينفورس دخلت في حكم الروس في أيام القيصر إسكندر، والآن تذهب إليها السياحون في الصيف لطيب هوائها وللإستحمام فيها، وقد ذهبت إليها صيفاً، ورأيت في ميناها قلعة عظيمة في الصخر مشحونة بالمدافع، وأمامها صخور، وبينهما البحر، فمدخل الميناء مشابه لبغاز الأستانة المحروسة، وأي مركب تقدر على العبور إذا لم يكن لها إذن.

وهناك بارجة كبيرة مشحونة بالمدافع، وحين تمر السفن عليها نقد لإعطاء أوراقها، فما أحسن هذه المينا، ومرأى البلد لطيف، وهي جديدة العمارة على كيفية بتربورغ في البناء وتوسيع الطرق، إلا أن الممشى بها قليل، ولعله يصنع بعد مدة، وفيها رصد على الصخر، وفيها مدرسة كبيرة عمومية تسمى الأونيفرسيتيت، وفيها مقعد كبير فيه طاوولات التلامذة موضوعة بالتدريج أعلى فأعلى، وفي صدره صورة إسكندر الأول قيصر روسيا وعمود مكتوب فيه اسمه، وتاريخ تأسيس هذه المدرسة سنة ١٨١٥، وجميع ما في هذه المدرسة كان في مدرسة أبو، فلما خرقت سنة ١٨١٨، نُقل كل ذلك إليها، وذهبت في البحر لرؤية قلعتها العظيمة المسماة، سيوى بورغ، ورأيت المدافع المرصوفة من كل جهة ثلاثة أدوار، وهي من أحسن القلاع، يقال إنها تشبه قلعة جبل طارق، وبهذه القلعة صهريج كبير لحفظ الماء العذب المتجمع في الأمطار، وحوله غدران من الأمطار، وهناك منجرة ومحل للأسلحة ٦٠١٦، كالسيوف والبنادق، وفي ميدان هلزن فورس عامود رفع تذكارا لزيارة القيصرة اسكندرة هذه المدينة، وعليه مكتوب اسمها، وكذلك تاريخ زيارتها ٢٩ تموز سنة ١٨٢٣، فانظر لحفظهم آثار ملوكهم وتنويعهم بشأنهم.

وفي هذه السنة أمر بطرس أن كل البضائع البحرية لا ترسل إلى أرخانكيل كالسابق بل إلى بتربورغ، وفيها زين كنيسة التثليث بناقوس

كبير أخذته الدننما من مدينة أبو، وكذلك عدة كتب أخذت منها، وجعلت أساس خزانة كتب أكديميا العلوم، وفيها ظهر أول كتاب طبع في بتربورغ، وهو كتاب إغارة العسكر الروس على السويد، وأخذهم منهم عدة حصون وقلاع وبلاد.

وفي هذه السنة في اليوم الذي يشهر لفتح بولتافا وصل الجي الفرس، وجلب معه هدايا للقيصر، من جملة سباع وأنمار وفيل عظيم وهولندرتة عجب الناس، ولما مر على استراخان تبعه الناس بعض أميال من فرط التعجب، وكان للفيل كل يوم من الرز والزبيب والخمر، ونحو ذلك ١٥ زبالاً، لكن برودة الهواء ورطوبته في بتربورغ خصوصاً في ذلك الوقت قتلت هذا الحيوان العجيب، ولكن حشي بالصناعة وعمل بعزا وحفظ إلى الآن.

وكان قائد الفيل في العادة يقوده في الأعياد محلى ومغطى بالنفاسة عند الأعيان، ويصل له من ذلك مدخول عظيم، قلت: والآن في تسارسكي سلوفيل من مدة تذهب الناس للتفرج عليه، وسفير بخار الذي وصل هذا العام ١٨٤٩ حمل معه أيضاً فيله، لكن ما وصل إلا في الصيف بعد موته هو في بتربورغ، لكن ما دفن فيها بل حمله أصحابه والأمراء والأعيان سلكوا مسلك القيصر، والناس على دين ملوكهم، فبنى الأمير غغارين حاكم سيبيري بيتاً عظيماً وبقره بنى الأمير شافيروف وسترويف وزوتوف وغيرهم.

وأمر القيصر بعمل طريق مستقيم في خلال الغاب من الترسانة إلى دير مار اسكندر نيفسكي، وهذه الطريقة الطويلة العريضة سميت نيفسكي پروسپكت، قلت: هذا لنيفسكي أحسن شارع في بتربورغ، ولو كنت سحت الدنيا لأمكن أن أقول في الدنيا أولاً الطريق واسعة طولاً وعرضاً ووسطها ١١١/١ ميلط بالحجارة، وفي وسطها بلائع لشرب ماء المطر، وما حول الحجارة من الطرفين ميلط بقطع الخشب المرصوفة بحسن الترصيف، وعليها تمر العربات مسرعة كالطير لسهولتها. وحول الخشب المماشي العريضة الميلطة بالحجر الصوان لمشي الناس، وفي هذا الشارع المخازن اللطيفة والتحفجية والكتيبة والحلوجية والقهوجية والخياطون، لكن لا تظن أن ذلك كما في بلادنا، بل

كل ذلك في غاية الإتقان والإحكام والفخر.

وعادة الكبار التفسح في نيفسكي قبل الغداء خريفًا وشتاءً، فهو ملتقى الأحباب ومجمع الأصحاب، ومأوى الحسان ومرتع الغزلان، وفي وسطه خزانة الكتب القيصرية المحتوية على الكتب من كل جنس حتى من كتبنا، وفيها جملة من كتب موقوفة أخذت في حرب أردبيل<sup>(١)</sup>، وقد نظرت هذه البنية العظيمة، وحسن وضعها وترتيب محال الكتب، ويجور لكل من يريد المطالعة فيها، أو الكتابة منها الذهاب إلى هذه الخزائن، إلا أنه لا يباح نقل الكتب إلى محل آخر إلا بإذن خاص، وكم رأيت هناك زيادة على الأوربيين فرس وقرم وترك يجيئون لنقل بعض الكتب أو قراءتها.

وفيه أيضا التياتر الإسكندري وأمامه فسحة ظريفة وحدقة لطيفة، وفيه أيضا السوق الكبير غوستولي دفور، وهو بنية عظيمة، مربعة الشكل، يباع فيه كل شيء، وفيه أيضا بنية عظيمة أحدثت منذ سنتين وسقفها منير، وفي وسطها معبر لجميع الناس محتوية على فخارة غالية، فذلك تسمى الباج يعني المعبر، وبالجملة ففيه ما فيه مما لا أقدر أن أفيه.

ثم عمل القيصر فريق شمع في ناحية فيبورغ، وسوقًا في جزيرة بتربورغ، وأراد أن السفن المتجرية ترسي عند السوق، ووصلت مركب تجارة من هولاند في الصيف، وهي ثاني مركب وصلت بعد تأسيس المدينة وسيورها القيصر بنفسه مثل الملاح إلى الجزيرة، وضرب صفيحة عليها نقش صورة القيصر لتذكار فاتحة التجارة الخارجية.

وفي سنة ١٧١٤ ذهب القيصر إلى ريفال لتأسيس الميناء، وأخذت بيارق ومدافع من قلاع السويد، وجلبت إلى بتربورغ، ونقلت المحاكم من موسقو إليها، وأمر القيصر بإحصاء بيوت بتربورغ، فوجدت ٣٤٥٥. ووفد ٦١١/١ ظًا عليه سفير حاجي محمد بهادر خان أزبك، ثم سافر القيصر إلى كرونشتاد، وأطلقت المدافع من القلعة، وتبعه ٣٠٠ سفينة، وكرونشتاد مرسى السفن الكبيرة ومقام الدنما الروسية ومينائها حصينة جدًا، بحيث لا يمكن لسفينة العبور

(١) من أشهر مدن أذربيجان. ياقوت الحموي، ج ١، ص ١٤٥.

الإبالاذن، وكم فيها من سفن وبوارج بعضها من أربعة أذوار كبار راسية كالجبال الراسية بمائة وعشرين مدفعا وأكثر، وهناك مدافع مرصوصة.

وقد دخلت المدينة من البغاز بعد أن أجازوا الجواز، فوجدت أبنيتها كأبينة ضواحي بتربورغ، وبها كثير من بيوت النظام والبحرية، وبها ترسخانة أمامها فسحة كبيرة في وسطها صورة بطرس الكبير فاتح البلد واقفاً على عمود ويده سيف، وهذه الصورة مصنوعة في سنة ١٨٤١، وهي محتشمة جداً وبها جنينة كبيرة تسمى «جنينة الصيف» لطيفة المنظر، فيها كشكات لطيفة، وفيها منظر عال، أمامه عمود أخضر عليه صورة رأس بطرس الكبير بتاريخ ١٧٠٣، وصعدت هذا المنظر، فرأيت منه البحر والسفن، وكان بطرس ينظر من هذا المنظر السفن الواردة.

وفي الجنينة فسقتان كبيرتان مربعتان، في وسط كل زورق صغير جداً في غاية الضرافة بصاري لطيف، وهناك خليج مرصيف لتعمير السفن تنزل فيه السفن المراد تعميرها، ثم يوضع حاجزان من الطرفين، ثم يخرج الماء بالتو تعمير المركب، وحين تتم العمارة يرسل الماء وتطلق السفينة تجري إلى البحر، وفي اليوم التالي سافرت السفراء، ومن جملتهم سفير الخان وأعضاء المحكمة في سفينة، فأما القيصر فوصل بلا عائق، وكذلك السفن التي تبعته، وأما سفينة السفراء وأعضاء المحكمة فمكثت ثلاثة أيام بلياليها، بسبب شدة الريح الشرقي وغشومية الريس والمستعمل، ولتخت في الخوض وتعورت.

وفي اليوم الثالث تضاعفت الصاعقة وأندرت بالهلاك، وفي اليوم الرابع خلصت من الخوض بواسطة سفينة أخرى أرسلها القيصر لإعانتها، ووصلت إلى كرونشتاد، ومن العجائب أنها ما غرقت بالكلية، وبهذا الغرق مات بعض الناس، ومنهم الجي الخان الذي وجد نفسه أول مرة في البحر، فبعد الجزع والفرغ والهلع، قنط وتغطى ورقد على المطوية. أي سطح المركب ينتظر الموت، وأمر الملا الذي معه أن يدعو الله، وأن يقرأ عليه آيات من القرآن.

وفيها أمر القيصر الحريص على زيادة عدد أهالي مدينته وتحسينها بأن يأتي إليها من موسقو وغيرها ٢٥٠ عائلة من الأعيان، كل يملك أقلًا مئة نفس، ليبنوا لهم بيوتًا في المحال التي تعطيها لهم المملكة، وأمر الأغنياء والمترمين والتجار ونحوهم ببناء ٣٠٠ أخرى، وهذا الأمر ما أعجب كثيرًا من المأمورين، خصوصًا البياريين المترمين الذي اضطروا إلى ترك موسقو وطنهم العزيز، وسكنى بلد جديدة بالكلية ليست مخصبة، كما قالوا إلا بالدموع والمنتععات، وقولهم هذا أذكرني قولي سابقا:

أمر على ربعهم ما حلا  
فأرجع من دمع عيني خصيبا  
وما اطفأت من فؤادي لهيبا  
وفوا عجبًا لبحار الدموع

لكن بطرس لم يتفكر إلا في عاقبة وطنه السعيدة، واستبدل الراحة الجزئية براحة العموم، وما فكر في راحة نفسه، بل خاطر بها دائمًا في المعارك، فذهب وحراب وأسرقبطان السويد إيرننشليد مجروحًا بعد ساعتين من حرب خطيرة سفاكة، وسطوات فتاكة، وقتل من ٩٤٠ من السويد ٢٥٢، وأسر الباقون، وقتل من الروس ١٢٤ وجرح ٢٤٢، وأخذ هانكوت وجزائر الأند، ودخلت الروس أبو بلا عائق.

وحينئذ كتب القيصر إلى مينشيكوف يخبره بذلك الفتح، ويقول حقيقة إن في هذه الحرب كما في حرب المعاقدين ضد فرانسوا حبس جم غفير من جنرالات وفيلد ماريشالات، لكن ما أصيب بهذه القارعة ولا رئيس دنما، فنخبرك حينئذ بنصر مبين ما كان له نظير إلى هذا الوقت، وأخذ عدة أماكن في هذه السنة من الفينلاندا، منها مدينة فازا وقلعة نيسلوت، وبتملكها تمت إطاعة الفينلاندا، ثم رجع إلى مدينته ظافرًا، ودخل بموكب عظيم بعدما عاقه الريح ثلاثة أيام عند كترينغوف، فلو كانت سفن البخار في زمنه ما كان انتظر ساعة، وكانت دُبرت عليه الأوقاف، فما كان يفعل إذ ذاك، وبسبب هذا الظفر انتقل القيصر من رتبة الرئيس إلى رتبة نائب قبطان، وهنى بذلك، وحصل له السُرور بالظفر والاستحقاق الذاتي، فذهب إلى وسيلي استروف في قصر إشرافه منيشكوف للضيافة العظيمة التي عملها، وكان من

جملة الحاضرين قبطان السويد إيرنسنشليد، فقال القيصر للحاضرين مشيراً إلى القبطان، أنتم تنظرون بين أيديكم شجاعاً خادماً أميناً ملكه مستحقاً ليس فقط لإكرام شارل، لكن أيضاً لإكرامى، ومع أنه ٦٢/١ ظاً قتل من ريعتي كثيراً من الشجعان، لكن ما فعل في ذلك إلا الواجب عليه، ويقدر أن يتحقق أن رعايتي له لا تنقص أبداً، فعند ذلك قام القبطان ورق قلبه، وبعد ما شكر القيصر وعمل له التمني أجاب، وقال: أنا ما فعلت إلا ما اقتضاه الواجب، وإن لم ألاق الموت الذي طلبته في معارك الحروب، فمما يسلبني الفكر بأن غالبى ضابط بحري متميز هكذا مثل أبهة القيصر، وإنى سعدت بالتماس أمانة وعفوه وإقرار بطرس الصادق للخصم، ضاعف مقامه في اعتبار الناس:

وما عبّر الإنسان عن فضل نفسه بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل

ويناسب أن تذكر هنا خطبة بطرس التي قالها بعد ذلك الظفر بمدة قليلة لما أنها تجلب العناية، وذلك يوم إنزال الغليون المسمى شليسلبورغ في الترسانة ٢٨ تشرين أول، وهذا الغليون ابتدأه اليد التي تعرف القيادة بغاية الإصابتة العقلية العليا، وقادوم الباني تاج ملوك الدنيا، قال للسامعين: «يا إخوتي، من كان يقدر منكم من مدة عشرين سنة أن يتصور أن هنا على ساحل بحر بلطيق أن نغلب أعداءنا في دنما بنيانها بأيدينا، وأن نسكن في هذه الأمكنة التي كسبناها باجتهادنا وشجاعتنا، هل كنتم تظنون أن في قليل من الزمن تشاهدون جمّاً غفيراً من العسكر والنواتية شجعاناً مجريين من طينة الروس، ومدينة مسكونة ليست فقط بالأهالي المولودة في روسيا، بل بالبحرثفين والأسطوات والتجار والعلماء والغرباء الذين جاؤوا توطنوا بيننا، هل كنتم تظنون أن نعلم إلى هذا الحد أن نكسب تعظيم الأمم المنورة، المورخون نسبوا إلى الروم الشرف ٦٢/١ وبأنهم كانوا مهد العلوم، لكن لما أجلهم القضاء من بلادهم التجأوا إلى إيطاليا، ومنها انتشروا في كل أوروبا، ودخلوا إليه وما وصلوا إليها قط، بسبب جهل آبائنا، فبالنتيجة بقينا غارقين في ظلمة الجهل الذي كان غرق فيه الجرمانيا واليه قبل ظهور العلوم فيهم، وبواسطة اعتناءات الملوك العقلاء لهذين القطرين ما عوقوا في التمدن، وتصدوا بنفسهم

إلى نشر هذه العلوم التي الفضل فيها للروم بسبب القدم، وفي الآخر جاءت نوبتنا، والتمدن في هذا الوقت، وما بعد لا يجد عائقاً في وطننا بشرط أن تعاونوا مقاصدي بالخلوص والقبول وأن تفرنوا الاجتهاد والصبر بالطاعة والإذعان، وأنا أشبه تزايد العلوم بسريران الدم في جسم الإنسان، وأرجوا أنها تمكث عندنا، وأنها تتقوى لتعود في الآخر إلى بلاد الروم ووطنها القديم، وأكاشف أن الروس يخجلون الأمم المتمدنة يوماً، ويمكن في أيام حياتنا بتقدمهم في العلوم وحميتهم التي لا تنطفئ التي بواسطتها يستمرون على أشغالهم الشريفة ويرسمون أسهمهم على قمة المجد المنيفة».

وهذه الخطبة التي أوحتها نفسه الكريمة الكبيرة سمعت بغاية الإنصات الديني، وسببت حمية عمومية بين الحاضرين، ومن كان منهم يعترض على الملك لم يقدر أن ينكر حقيقة كلامه وعظم مقاصده ونفعها.

وفي ٢٤ تشرين الثاني من هذه السنة يوم عيد القيصرة، أحدث القيصر تشريفا للقيصرة نشان كترين شكرًا لها على أفعالها الجميلة للقيصر وللمملكة، وذلك أنها أنفقت لسلامة القيصر والعسكر الروس كلما كانت تملك من الجواهر، وأنها استمالت الصدر الأعظم حتى أذن للروس بمجاوزة حدودهم، ولهذا سمي ذلك النشان «نشان التخليص»، ومن حيث أن هذا النشان على اسمها، كانت أول من تقلد بحمائلته، ٦٣/١ ظ، ثم بعدها شاهزاده حنة بتروقتا بنت القيصر لإشهار تزوجها، ثم تنقل القيصر إلى رتبة ساري عسكر، ثم قررت عينه برؤية رهائن الروس من اسلامبول.

وفي هذه السنة كتب فرماناً ٦ تشرين أول بعقاب النفسي، وأخذ الأموال للخزنة لكل شخص بنى في غير بتربورغ إلى وقت معين بيوت حجر، وهذا الفرمان ألجأ إليه حب القيصر لزيادة بلده المنشأة، وفي ٢٤ تشرين أول فرماناً آخر أمر فيه أن كل سفينة تأتي إلى بتربورغ لا بد أن تحمل معها عددًا من الحجارة، بعضها ثلاثين وبعضها عشرين، وبعضها عشرة بحسب كبرها وصغرها، وكل عربية بضاعة أو أمتعة تحمل ثلاثة أحجار، والحجارة الآتية في المراكب لا بد أن تزن أقلًا عشرة أرطال، والآتية في العربات لا بد أن تزن خمسة، ومن خالف الفرمان فعليه الغرامة عشرة كيبكات لكل حجر.

وفي ٦ تشرين الثاني فرماناً آخر أمر فيه أنه لا أحد يسكن عنده شخصاً إلا بضمان أو أوراق الشهادة، وهذا بسبب كثرة اللصوص والمعاكيس الذين عاثوا في المدينة.

وفي ٩ تشرين الثاني فرماناً آخر أمر فيه أن يرسل من الأخطاط سبعة وثلاثين رجلاً من أهل الخبرة المجريين لأجل الجمرك وتفتيش المراكب، وبنى زيادة على الكنائس والبيوت التي أحدثت هذه السنة بيت لكونسلارية المملكة في غاية الترتيب، وحسب من جملة المستخدمين فيها تراجمة لستة عشر لساناً وهي الروسي والليهي واللاطيني والنيمساوي والفرنساوي والإنكليزي والهولاندي والدانيمارقي والإيطالياني والإسبانيولي والرمي والتركي والتاتاري والصيني والمنغولي والكلموكي.

وفي سنة ١٧١٥ اعتنى القيصر بتحسين المدينة، واستعجال الأشغال الدائرة في عشرين موضعاً، وكان يلاحظها كلها بنفسه، فكان يروح من كرونسلوت ١٦٤٧ إلى بترغوف، ومن هناك إلى كراسني سلو. إلخ.

وفي أول هذه السنة أشهر عرس الأمير زوتوف وكان عمره ٨٤ سنة، وتزوج بعازبة عمرها ٣٤ سنة، وعمل مسخرات<sup>(١)</sup>، وأمور مضحكة مناسبة لذلك الوقت، وحضرت القيصرة وأتباعها والعائلة الملكية ونساء القصر في كسم<sup>(٢)</sup> غريب، وعقد العقد قسيس عمره ٩٠ سنة، وقدم الخمر اختيارية لا يمشون إلا بغاية العسر، وقصد القيصر من ذلك فكة سكان مدينته بمناظر عجيبة بين الأشغال الشاقة.

وفيهما أرسل القيصر سفيرا إلى بلاد الفرس لعقد التجارة، وفيها طلب قيصر الصين من الأمير غاغارين حاكم سيبريا حكيمًا، ومعه كل العقاقير والأشياء اللازمة لصناعته، وغاغارين لما استعجل بإخبار القيصر، اغتنم القيصر هذه الفرصة لعقد المحبة، وأرسل له طبيبنا إنكليزيا كان في عسكره وأصعبه بمهندس.

(١) كعب فوقها المصنف: رقص.

(٢) أي: ظهر بمظهر لائق، راجع: رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ١٦، ج ٩، (ترجمة: جمال الخياط)، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٩، ص ٨٨.

وفيها ١٢ آب، وُلد للقيصر حفيد، وسمي على اسمه بطرسًا، وأشهر فرح الولادة أسبوعًا، وأرسل القيصر إعلانات بذلك للغائبين عن المدينة، فكتب إلى شيريميتوف ما نصه: «أخبرك أن الله أعطاني هذه الليلة عسكريًا شابًا اسمه كاسمي، وأترجأ أن تخبر بهذا الخبر الجنرالات والضباط، ومن طرفي إلى كبار الناس وصغارهم».

وكتب مثل هذا إلى فون هوفت، غير أنه قال: نواتيا شابًا وزاد، ولما كتب إلى صولتيكوف: «أرجو الله أن أراه يومًا تحت البندقية».

وفيها أسست أكاديمية الملاحة وتلامذتها ٣٠٠ من الأعيان، ومع أن القيصر سافرسنتين لرؤية البلاد الغربية فنفسه حاضر، فلم تنقص الأشغال، وسفره ما كان إلا لنفع وطنه، فإنه لما رأى نظام البلاد وبدائعها وحسن التمدن فيها، وتقدم العلوم ومنافعها (٦٤/١) أحب أن يقلد ذلك في وطنه ورعيته كما تراه في أخباره.

ومن جملة ما أسس من جديد قاعة التاريخ الطبيعي المزينة بجملة عظيمة من الحيوانات والطيور والأسماك، والحيوانات التي تعيش في البر والبحر والحشرات، وغير ذلك من أشياء الصناعة، اشترى القيصر البعض من الأجزاء؛ شيئًا بقيمة ١٥٠٠٠ مجر، والبعض اكتسب من هولاند في سنة ١٦٩٧، وبقي في موسقو، وفي هذه السنة ١٧١٦، كل هذه الأشياء جمعت في بيت كيكين، وضم إليها جملة من الأحجار المعدنية، ومن الودع اشترت من العالم غونفالد، وكتب عظمة جلبها ميني شيكوف من كورلاند سنة ١٧١٤.

وبعد سنة ضم أيضًا جملة كثيرة من هذا النوع كانت عند روش معلم القيصر التشريح، وبعد موته اشترها القيصر من ورثته، ثم نقل ذلك إلى وسيلي اوستروف في المحل المسمى «كونست كامير» الموجودة فيه إلى الآن والمزادة كل أوان، وهذا المحل قصر كبير محتو على عدة أوضاع واسعة توجد فيها كل أصناف الحيوانات والطيور والعصافير والحشرات والأسماك والمعادن والودع والملابس وغير ذلك، وفي كل سنة في الربيع تفتح لتفرح العامة فتذهب الناس أفواجا لرؤية هذه العجائب ومشاهدة هذه الغرائب.

وفي سنة ١٧١٧، حفر أربعة خلجان، ورجع فيها القيصر من فرانساً، وعرض عليه السويد إرسال وزراء مختارة من الروس والسويد في جزيرة الأند، لعقد الصلح الدائم بين الدولتين، فأرسل القيصر بالسرعة القوت برسوس.

وفيها بنيت بالحجر كنيسة إسحاق التي كانت من خشب، وعمل لها قبة طولها اثني عشر باعاً، وناقوس أحضر لأجله القيصر من أمستردام ساعة كبيرة دقاقة بقيمة ٣٥٠٠٠ رُبل، لكن خربتها الصاعقة سنة ١٧٣٥.

وفيها أهديت للقيصر كرة سماوية كبيرة جداً بحيث تكلفت مبلغاً جسيماً في نقلها بزا من كيل إلى بتربورغ أهداها له دوقه شليسفيل هولستين (١٦٥١) لما عرف بشغفه بالعلوم، وفيها ابتدئ في بيت لعب التياتر بمعونة شاهزاده نتاليا الكسييفنا.

وفي سنة ١٧١٨ قضية ابن القيصر شاهزاده اليكسي القاضية، وذلك أن سلوكه المنحل ومعاذته لأبيه وعدم استحسانه لأفعاله، وهربه خارج روسيا، كل ذلك أغضب القيصر حتى هدده بحرمانه من إرث التخت، لكن لم يفصل ذلك الأمر بسبب أنه كان ابنه المتوحد، لكن لما ولد بطرس الثاني وُلد الكسي أراد القيصر أن يفرغ وسعه في تذليل الجموح، وكان كل ذلك بلا طائل:

إذا أظهر الدهر شخصاً ليبيناً      فكن في ابنه سيء الاعتقاد  
فلمست ترى من نجيب نجيباً      وهل تلد النار غير الرماد

ثم لما لم تنجح الوسائط اضطر إلى تهديده بالموت كالباعغي، لكنه لما سمع ذلك أخذه الفزع، وملك قلبه الهلع، ووقع في حالة الغرغرة، وبلغت الروح الحنجرة، ولم تنفع اجتهادات الأطباء، ولا تسليمة الأحياء المحققين له عفو والده، بل ولا رقة بطرس عليه في هذه الحالة، حتى كأنه نسى عيوبه وأفعاله<sup>(١)</sup>:  
(الكامل)

(١) البيت للشاعر خويلد بن خالد بن محرز بن يزيد بن أسد، المعروف بأبي ذؤيب الهذلي، توفي في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وانظر البيت في الديوان، تحقيق: أحمد الشال، مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، بورسعيد، ط ١، ٢٠١٤، ص ٤٩.

وإذا المنيئة أنشبت أظفارها ألفت كل تميمة لا تنفع

وفيها أمر بإحداث ضابط سياسي للمدينة، وترتيب كونسلازية السياسة، وقواعدها منحصرة في ١٣ نوعاً:

- ١- الأبنية بحسب الأصول المقررة قبل.
- ٢- إحكام شواطئ الأنهار والخلجان وحفظها.
- ٣- السرقة.
- ٤- النظافة وتعيين الأماكن لبناء القوارب المعينة لتجار الوقود.
- ٥- النظر في صفة البضائع المعروضة للبيع وثمانها ووزنها.
- ٦- رعاية النظافة أمام البيوت المسكونة وسوق السمك وحفظ القناطر.
- ٦٥/١ ظ؛ ٧- فصل الخصومات والمنازعات بالسرعة.
- ٨- النظر في مداخن البيوت والأقمنة والمستودعات.
- ٩- النظر في البيوت المتهمة والألعاب المحرمة.
- ١٠- إمساك المتسحبين والهريانيين والباطالين.
- ١١- إلزام كل السكان أن ينهوا إلى السياسة كل الأشخاص التي تصل أو تسكن عندهم.
- ١٢- الاعتناء بإمساك المؤذنين واطفاء الحريقة، ووضع حاجز في طرف كل حارة، وإبقائه طول الليل.
- ١٣- الاعتناء ب نصب مشدات في المدينة وأون باشوات لحفظ السكون والترتيب العام.

وزاد القيصر بخط يده على هذه الأنواع.

١٤- إسكان النظام في بيوت الناس أياً كانوا كباراً أو صغاراً.

قلت: هذه الأمور كلها مراعاة الآن بغاية الإحكام وألف شيء آخر، فالأبنية في غاية الإتقان، يبني البيت الكبير بأربع أدوار أو خمسة في أقل زمن،

وشواطئ الأنهار والخلجان مرصفة أحسن الترصيف، ولهم في كشف السرقة تفتيش حصيف، ولا تنفع عندهم حيلة السارق الظريف، والنظافة مراعاة، ففي الخريف والصيف، يكنس الطرق وتوصيل ماء المطر إلى البالوعات وإزالة الوحل والقاذورات، وتجديد قطع الخشب أو الأحجار التي خلخلها العربات، وتثبيتها الخشب بالزفت والأحجار بالرمل، وفي الشتاء والربيع يكنس الثلج، وتنظيف المماشي (....)<sup>(١)</sup>، وربما توالى الثلج، فكلما سكن نظفوا، وإذا جمد حكوه بالحديد، ثم رشوا عليه الرمل وكنسوه.

فدائمًا يمكن التفسح بسهولة، وأما طرق العربات التي في الوسط فلا تنظف إلا في آخر الشتاء، وكذلك الأسطحة قبل أن تحلل شمس الربيع ذلك، فيكون البلل والوحل، وأما شمس الشتاء فلا تحلل الثلج بل الصحو والنشف غالبًا عند شدة البرد، فكأنها تبرد كما قيل<sup>(٢)</sup>:  
[السرير]

يوم تَوَدُّ الشمس في بردها أن أت النار إلى قَرصها

وكذلك القناطر في غاية المتانة والظرافة، وإذا حصل أدنى خلل أصلح في الحال، وأما المداخن، ففي كل أسبوع يأتي الهبابون لتنظيفها لما أنها مظن الحريقة، وهناك محال يرصد منها الحريقة، فحينئذ يولع فانوس لإعلام الناس، وتأتي المطفئون بالطرنبات وغيرها من آلات الإطفاء وأمرهم في ذلك عجيب، والقلقات والخفراء في كل حارة، ومن سكن في محل فلا بد من التعليم على تذكرة مروره، ولكل أحد تذكرة يغيرها في الغالب كل سنة، ويدفع شيئًا مخصوصًا، ولكل بيت بواب أو أكثر بحسب صغر البيوت وكبرها، ويمشون أمام البيوت في الليل بعضى يخبطونها على الأرض، وفي البيوت الميرية حراس وديدبانات، وللأقوات سعر مخصوص من طرف الضابط يكتب في الجرنالات لتعرفه العامة، ومن طفف في الكيل أو الوزن فعليه الغرامة،

(١) كلمة غير واضحة.

(٢) منسوب للشاعر علي بن يوسف بن شيان، جلال الدين النميري المعروف بابن الصفار توفي سنة ٦٥٨ هـ. الذهبي: تاريخ الإسلام ١٤: ٨٨٦؛ والصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج ٢٢، ص ٢١٦؛ والبيت في المصدر السابق، ج ٢٢، ص ٣٤٨.

والمجرمون يقادون في السلاسل، ويعاقبون على حسب جريمتهم، إلى غير ذلك من أنواع السياسة الدقيقة الباعثة على الراحة العامة، والسّادة على المؤذنين كل طريقة.

وبعد ما رتب القيصر السياسة، شرع في الأمور المسلية للعامة والخاصة الذين يرتاحون إليها بعد التعب، وينسابون إليها من كل حذب، كي تنشطهم وتلين طبائعهم وتفتق أذهانهم للحكمة، ثم بعد هذه المهيات تفكر أنه بقي عليه أيضًا تقريب الأعيان المفترقين بسبب الأوهام الموجودة، وذلك بأن يستميلهم للذات اللطيفة التي ما عرفتها الروس، بل ولا تصورتها قبله، وبأن يسهل العلاقات بين النوعين الذكور والإناث، وليس إلا في أيام القيصر الكسي ميخايلوفيج أن النساء ابتدأت في تحلية الجمعيات، وأطلق لهن العنان قليلاً في الروسية، لكن كان ذلك معارضاً بحجر الآباء والأزواج، فكُنَّ يعشن في الخزن بلا رجاء ولا حظ ولا ميل بسبب حجرهن في البيوت، فلم يبق (١٦٦٧) لهن إلا التأوه والملل والإطاعة الكاملة لأوامر الظالم البيتي التي هي في الغالب هوائية، والإرادات التي هي تارة عنادية، لم تغير شيئاً من معيشتهن بالسكون والهدوء والصلاح، حتى لو صدرت من الطاعن في السن الذي شابت ناصيته، فكان يكفي في ضياع صيت امرأة شابة من الأكابر أن تخاطب رجلاً ولو بكلمة، وإن صدر هذا الذنب المدعى من امرأة متزوجة حرمت في الحال من رضى زوجها، فعلى هذا يمكن أن تقيس ما يقال، وما يظن فيمن تعطي يدها لأول واصل وتحدث معه، وتمشي معه متفسحة في حضرة جمعية عظيمة، وهذه الحالة المهابة بين الجنسين التي لا تتحد مع أنوار العلوم والتمدن المتبدأ بين أكابر الجمعية بسقت، وانكشفت بالتدرج رغمًا عن اجتهادات القيصر، وعافت أيضًا تحصيل مقاصده، لكنه عزم على اجتثاث هذا الوهم، ولأجل ذلك كتب ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧١٨، فرماناً لترتيب الجمعيات المجهولة إلى ذلك الوقت التي فيها يحضر الرجال والنساء سواء، وبيان ذلك كما كتب في الإعلام أن الجمعية تكون في بيت أيا كان بلا تضييق، فتأتي الناس ليس فقط من شأن الحظ، بل من شأن أشغالهم أيضًا؛ لأن كل واحد يجيء هناك يرى الأشخاص الذين يحتاج أن يكلمهم في الأشغال، ويتعلم

منهم الأخبار الواقعة، فقصارى الأمر أن الناس تذهب هناك للتسلي، وقبل استعمال هذه الجمعيات عمل القيصر قوانين لترتيبها وها هي:

\* إذا أراد شخص أن يعمل جمعية، لا بد أن يعرف الأشخاص الذين يجيئون رجالاً أو نساءً بواسطة الكتابة أو غيرها محل الجمعية وأن يجيئوا إن يريدوا.  
\* ٦٧/١ ظ: الجمعية لا تبتدىء قبل أربع ساعات أو خمسة بعد الظهر، ولا تمتد بعد الساعة عشرة.

\* صاحب البيت ليس مضطراً إلى ملاقة المعزومين ولا توصيلهم ولا تحيتهم وموانستهم، بل يقدر أن يغيب بلا لوم في وقت الجمعية بشرط أن يهيئ ذلك الأوض بالسفر والنور اللازمين والمشروبات لمن يطلبها، وأن يضع على سفر مخصوصة ما يلعب به كالورق.

\* لا تعين الساعات بل الضيوف يقدرون أن يجيئوا في أي ساعة شاءوا بشرط أن لا يكون قبل ٤ ساعات ولا بعد ١٠.

\* يمكن التفسخ واللعب في الجمعية بلا مضايقة ولا إضرار لآخر، ويمنع من القيام عند ذهاب بعض أي كان، ومن توصيله إلى الباب، أو فعل التكلف والرسم، وفاعل ذلك يعاقب بالنسر الكبير، وذلك أنه يلزم أن يشرب كأساً كبيراً عليه نسر، ولا يقبل الاعتذار، فبمجرد الإثم يصب الأثم ويحتسي فقط، يلزم الاقتصار عند الدخول على توطئة الرأس قليلاً للسلام على الجماعة.

\* يعين كل أنواع الناس الذين يترددون في الجمعيات وهم كبراء العساكر والأعيان وأصحاب الخدم الشريفة كلهم مع زوجاتهم.

\* الخدمة والقواصة لا يدخلون داخل الأوض، لكن يمكنهم في المدخل أو في محل آخر يعينه لهم صاحب البيت، وهذه الشروط ملاحظة في المضيف ونحوها إن أعطي فيها رقص أو ضيافة.

\* الرقص في أوضة، وفي أخرى يلعب الورق أو الضامة أو الشطرنج، وفي ثالثة يشرب الدخان والسجار، وفيها سفرات عليها الخمر ٦٧/١ و الدخان والكبريت... إلخ، والقيصر كان يحب لعب الضامة، وكان ماهراً فيها بحيث ينذر من يغلبه.

وأول الجمعيات كان عند ابركسين، ثم عند الأمراء، ثم عند أهل الاعتبار، وفي يوم الجمعية يحضر رئيس السياسة ويكتب أسامي الواصلين، ويجيء القيصر في الساعة ٦ مع القيصرة، وباقي العائلة الملكية، ويفتتح الرقص بالرقص الليهي ثم الإنكليزي، وضباط السويد كانوا متميزين في الرقص حتى أنهم زماناً طويلاً أعطوا دروس رقص لنساء الروس ورجالهم، وفي وسط أدوار الرقص يحضر للستات الشاي والقهوة وشراب العسل وغير ذلك، وبعد ذلك كانت العادة بإحضار الشوكولات وشراب الليمون، وذلك أن دوق هولستين فعل ذلك أولاً فأتبعه الناس، وهذا الدوقة أول من أظهر لكبراء بتربورغ حسن الموسيقى، وعنده نوبة أحضرها من بچ، وما كان سمع إلى ذلك الوقت في الرقص إلا أصوات الطربنيطة المصمتة والبوق ونحو ذلك، وكان ذلك حسناً لفقد الأحسن.

وفي الصيف كان القيصر يعطي الجمعيات في جنينة الصيف التي أنشأها على الذوق الهولاندي من عدة خطوط مستقيمة، وفيها حفر القيصر خليجاً بين النيفا وفولكوف دفعا لخطر الغلال ونحوها إذا أحضرت من طريق آخر. وفيها أنشأ عدة مدارس منها مدرسة الأشغال المتعلقة بالبلاد الغربية، ومنها مدرسة الحرب، وأحدث البوسطة على الخيل، وكرخانة الورق في دويدوف، وفبريقة بسط وأقمشة من الحرير والصوف والمقصب، ومعملاً للغزل فيه يشتغل ٨٠ امرأة فقراء وعجائز تحت نظارة امرأة من هولاند.

وهذا الغزل قوي ورفيع لا ينقص عن غزل هولاند، فأنت ترى كيف حوت المدينة في هذه السنة زيادة على الأمور اللازمة النافعة أصناف الفنون والحكم وأنواع الترفه والنعم.

سنة ١٧١٩ / ٦٧١ ظ فيها أرسل القيصر رجلين عارفين، لكشف شبه الجزيرة «كامشاتا» التي تدفع الخراج للروسيا من سنة ١٧٠١، ونعتها بالتفصيل، ولمعرفة هل آسيا ملتصقة بالأمريقا بلسان الأرض. وأرخل آخر لمعرفة سواحل بحر كيلان بين استراخان واستراباد.

وفيها أمر في شهر آذار أن يكون أول نيسان كوميديا عجيبة، فأهطع

الناس زرافات<sup>(١)</sup> ووجدانا لرؤية اللعب، لكن بدل الكومديا رأوا لوح خشب مكتوب عليه بحروف كبيرة «هذا اليوم أول نيسان»، ففهموا وسروا بمباشطة القيصر معهم، كما يباسط الأب أولاده، وذلك أن العادة في هذه البلاد أن يلعبوا لعباً في شهر نيسان يسمى «سمك نيسان»، وذلك أن يخدع شخص آخر مثل يدس عندنا، وفي السنة السابقة فعل القيصر هذا اللعب بنوع آخر، وذلك أنه ذهب أول نيسان إلى بيت خشب قديم منفرد، وأمر بإحراقه فسارع الناس والعساكر بالأت الإطفاء، فسرعاً باجتهادهم وغيرتهم، وقال للجماعة ميتسماً منبسطاً: هذا أول نيسان، ثم وضع لهم براميل خمر وبيوزة لإزالة فزعهم، واجتثاث هلعهم، وفيها غنموا من السويد ٣ سفن حربية، فشكر القيصر الله وصلى في كنيسة القلعة، وضربت صفيحة لتذكار هذا الفتح.

وفيها كمل بناء تساركي سلو وابتدأها في سنة ١٧١٠، ولم تزل تزداد بالسكان الآتية من النواحي ومن موسقو، ومن حيث إنها إقطاع القيصرة كترين عملت لها طريقاً عريضة، وبنيت فيها قصراً بغير علم القيصرة، وعندما تم عرضت عليه أن يذهب معها للتفسيح، فلماً رأى ذلك سرّ وانبسط، ومن ذلك الوقت صارت منتزها لسكان المدينة يذهبون (٦٨١) إليها كل يوم، والأن زادت حسناً وجمالاً وبهجة ودلالاً.

سنة ١٧٢٠ فيها غنم الروس من السويد ٤ فريقاظة، وأنعم القيصر أولاً على البشير بهذا الخبر برتبة قولونيل، وعلى الأمير كاليستين الغالب بسيف وعصى مرصعة بالجواهر، وكتب له رسالته يشكره فيها، ورقى رتبة معاونه، وأعطى للضباط صفائح ذهب مضرورية لشرف هذه الواقعة، ولمن تحتمهم صفائح فضة، وأشهر النصر بإطلاق المدافع، وبالضلاة في الكنائس شكر الله، وأمر أن تدخل السفن المكسوية بموكب عظيم على بتربورغ، فدخلت وأطلقت المدافع لدخولها، وقيدت قرب كنيسة التثليث، ونصب هناك هرم من

الخشب مزين وصور مختلفة لإشهار ذلك الفرح، وعملت في الليل حريقة أمام

١ (أ): الجماعة من الناس: انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط٤، القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٤، ص ٣٩٢.

الكنيسة ووقدة في المدينة، وبقي الهرم مدة مملكة بطرس، وكان يسمى هرم الأربع فريقاطات.

ومع كبر المدينة يوماً فيوماً، وازدياد السكان وقتاً فوقتاً، وتكاثر الفتوح حيناً فحيناً، وتطافر العلوم والفنون أنا فأنا فالمخالفة التي كانوا يحدثونها في كل وقت كانت عائقاً صعباً يتعب القيصصر في قطعه، وثعباناً لساعاً لا بد من ضربه قبل لسعه، فمن ذلك الأوهام وأراجيف العوام، كما وقع في هذه السنة ١٧٢٠ أن فلاحاً كان يدعي الكهانة، قال: إن في شهر تشرين يكون طوفان يغرق المدينة والسكان، ويرتفع على الشجر (١٨٧) الموجود في القلعة، فصدقه كثير من العوام، وجم غفير من الطعام والتجار إلى أعالي بتربورغ، لكن القيصصر قمع الفتنة، ولما عرف المذنب حبسه في القلعة، وفي اليوم الذي ادعى أن يكون فيه الطوفان عوقب بالشدة، وأوصى الناس أن لا يصدقوا مثل هذه الخرافات والأوهام.

قلت: في سنة ١٨٤٠ قال بعض القسس مثل هذه المقالة، وكذب الله أقوالهم، ولله در أبي تمام حيث حُضُّ على عدم سماع هذه الدجالين فقال<sup>(١)</sup>:

السيف أصدق أنباء من الكتب      في حده الفصل<sup>(٢)</sup> بين الجد واللعب  
بيض الصفائح لا سود الصحائف في      متونهن جلاء الشك والزيب

(١) في ديوان أبي تمام الطائي (ت ٢٣١ هـ)، مصدر سابق، ص ٧.

(٢) في الديوان: الحد.

وقال آخر<sup>(١)</sup> :

(البيسط)

دَع النجومَ لَطْرُقِيْ يَعِيشُ بِهَا      وقم لوقتكَ وانهض أيها الملك  
إن النبيِّ وأصحاب النبيِّ نهوا      عن النجوم وقد أبصرت ما مَلَكُوا

وكما وقع أيضًا في سنة ١٧٣٠ أن قومًا أهل سوء خدعوا الناس، فلما دخلوا كنيسة التثليث، وجدوا الدموع تجري في صورة العذراء، فقالوا: هذا دليل غضب العذراء على المدينة، وهُمُّوا بالخروج، وكان القيصر غائبًا ذلك اليوم، وما قدر القونت كالوفكين أن يُسكن الناس، وخاف وخامة عاقبة هذه الحادثة، فكتب للقيصر، فجاء في اليوم الثاني، فامتحن صورة العذراء وكشف الحيلة، وانكشف المذنب وعوقب، وأظهرت صورة العذراء فسكن الناس، وهذا كما وقع للمرحوم السلطان محمود خان ممدن الترك في هذا الأوان، فإنه تعب كثيرًا في فمع الأوهام حتى وضع قوانينه على طرف التمام، وبقيت بقايا نرجوا أن تندفع بهمة ولده مولانا السلطان خليفة الوقت والزمان.

سنة ١٧٣١، فيها وصل خبر الصلح، ولذلك أرسل القيصر للأمير كاليستين رئيس الدننما (١٦٩٧) التي في فينلاندي بترك الحرب في الوقت، وقطع العداوة والرجوع، وذلك الخبر جاء به أوبريسكوف، وذلك الصلح على أن ايستونيا وليفونيا واينكرى وجزءًا من فينلاندي مع مدينة بتربورغ للروسيا، ولما رجع إلى المدينة أطلقت المدافع، ودقت الطرنيطات، فظن الناس حصول واقعة غريبة، وسارع الكبار إلى فسحة كنيسة التثليث لرؤية القيصر، فأخبرهم بانقضاء الحرب وعقد الصلح، وبعد الصلاة صعد القيصر على منبر، وهو في لباس العرضي متلقدًا بحمالة مارانديريا، وسلم على الناس بالحشمة، وقال:

«أسلم عليكم أيها النصارى الحقية أشكروا الله القادر الذي أعطانا وأعطى السويد صلحًا خالدًا بعد حروب دامت إحدى وعشرين سنة».

(١) هو : طه بن إبراهيم بن أبي بكر بن أحمد بن بختيار جمال الدين الهذباني الإربلي. توفي سنة ٦٧٧هـ. ابن الشاعر الموصلي: قلائد الجمال ٢ : ١٦٢ - ١٦٧؛ والذهبي: تاريخ الإسلام، مصدر سابق، ج ١٥، ص ٣٣٨ - ٣٣٩؛ والصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج ١٦، ص ٤١٣ - ٤١٤. وانظر الأبيات في الوافي بالوفيات، ج ١٦، ص ٤١٤.

ثم اغترف من برميل خمر وشرب على صحة الرعية، قائلاً: «أسلم عليكم يا أحبابي الطيبين، أعاننا الله على تنفيذ مقاصدنا في الصلح لأجل نمو سعادة هذه المملكة، وتخفيف الأثقال التي حملناها مدة الحرب والسلام عليكم».

ثم عرض أهل الحل والعقد على القيصر أن يقبل رتبة باش قبطان، فقبل ورقى أوبريسكوف سفير الصلح إلى رتبة الضابط، ونشر خبر الصلح في المدينة، ودارت العساكر في الحارات متلفعين بشملات بيض، وفي أيديهم بيارق بيض مزينة بتيجان الغار الأخضر، وتتبعهم الطرنبيطات.

وفي المدينة عدة أفراح وألعاب عامية، ثم في ٢٠ تشرين أول حكم أهل سينات أن يترجى القيصر باسم كل الرعية، شكراً على سعيه الجميل أن يتلقب أب الوطن وإمبراطور كل روسيا وبطرس الكبير، بسبب القوة والغنى وأنوار العلوم وتوسيع الرقعة، التي كانت روسيا بسببها ممنونة لاجتهاداته، وبسبب رحمته وشفقته واعتناؤه الأبوية وصلت رعيته باتباع أثره العظيم (٦٩٧)؛ فقط إلى أعلى درجة من المجد بين العالم، فامتنع أولاً تواضعاً لكن الإلحاح القائم والالتماس الدائم ألجأه إلى القبول، وذلك أن الأسقف خطب في كنيسة التثليث خطبة في ذلك الغرض، أولاً مدح فيها بطرس وأفعاله، ثم دعا الناس إلى شكره والاعتراف له بما يليق بواجب حقه ورحمته، فقربت كبار القسس من القيصر وشكر القيصر القونت كالوقكين من طرف الرعية على إخراجهم الناس من ظلمة الجهل إلى نور العلم والمجد العام، وعلى إخراجها من العدم، ونظمها في سلك الأمم المتمدنة، ثم ترجى الكونت بعد ذلك القيصر أن يقبل الألقاب المذكورة آنفاً، ثم قال: «نحن لانقدم لك باسم رعيتك إلا ما تستحق الحياة، الحياة الحياة الحياة لبطرس الكبير، أب الوطن، إمبراطور كل روسيا»، وبمجرد ما قال ذلك انطلقت أفواه الناس بذلك داخل الكنيسة وخارجها، ودقت الطرنبيطات والطبول والنواقيس، وأطلقت المدافع من القلعة والترسانة، فلما سكت الصداق القيصر، وقال بأعلى صوته:

«اتمنى أن كل رعيتي تعلم بالحقيقة ما فعل الله لنا مدة الحرب التي انقضت الآن، وتبدلت بالصلح، نحن نلزم أن نوجه إلى الله شكراً صادراً من القلب، لكن مع اعتمادنا على الصلح لا يلزم أن نفضل صنعة الحرب، وألا تقاسي الروسي ما قاست الروم، فالمناسب لنا أن نشغل في النفع العمومي، ونحقق المنافع التي من الله بها علينا داخلاً وخارجاً؛ لنخفف بها أثقال العامة».

ثم صلوا وقرأوا الإنجيل، ثم أطلقت المدافع أيضاً، ثم جثى كل الناس (٧٠/١) وقرأ المطران الدعاء، ولما خرج القيصر من الكنيسة سلمت عليه كل الناس بأصوات متفحة «الحياة للإمبراطور، الحياة لأبينا»، ودقت الطرنبيطات والطبول والنواقيس والمدافع، وهو في قلب رعيته، يزدحمون حوله لتقبيل يده (...) <sup>(١)</sup> بغاية المحبة وانفتاح القلب، إلى أن وصل سيئات، وهناك نصبت سفرة لألف شخص.

ويعد الوليمة المفتخرة كان التياتر، ثم الرقص في القصر، وعمل إنعام عام للعامة بإطلاق أهل اللومان والمحوسين لغير قتل أو كفر، أو قطع طريق، ورفعت البواقى من سنة ١٧٠٠ إلى سنة ١٧١٨ التي كانت ملايين، وكذلك غرامات في كل مملكة روسيا، وعملت للعامة وليمة مخصوصة، مركبة من ثور (...) <sup>(٢)</sup> ومزين، ومغروز فيه كثير من الطيور، وفي كل جنب عين واحدة ينبع الخمر الأبيض منها، ومن الأخرى الخمر الأحمر.

ثم بعد الرقص عملت الحريقة ورتبها القيصر بنفسه، فأظهر أشياء عجيبية منها معبد يانوس، وأبوابه مفتوحة ومنورة بعدة ٢٠٠٠٠ أنوار مختلفة <sup>(٣)</sup> الألوان، وفارسان أحدهما يحمل على مجنة سلاح الروس، والأخر سلاح السويد تقارباً قليلاً قليلاً من أبواب المعبد وتضافها علامة الصلح.

وفي ذلك الوقت دقت الطرنبيطات، وأطلق ألف مدفع، وزادت الحريقة جداً، حتى كانت أسوار بتربورغ والنيقا من اللهب، وعلى يمين المعبد ترس عليه تمثال

(١) كلمة غير واضحة.

(٢) كلمة غير واضحة.

(٣) ضرب عليها المصنف.

الحق يفحص برجله جنية، وعليه مكتوب هو «يعني الحق دائماً يغلب»، وعلى الشمال سفينة تاركة بحراً عجاجاً لأجل أن تدخل في الميناء، وفوقها مكتوب إنما الأعمال بخواتيمها»، ودامت الحريقَة إلى ما بعد نصف الليل، ٧٠١/١ ظا ورجع القيصر إلى سينات، وهناك الجماعة شاربين الخمر، وامتد الرقص إلى السّاعة الثالثة، ودقت صفائح من الذهب والفضة، وجوزي كل من حارب السّويد من الضباط والعسكر كل على حسب حاله، وأنعم القيصر على قبطان السّويد ايرينشليد المذكور سابقاً بإعطائه صورته المرصعة بالألماس، وأكرمه بتلقيه للوداع، وكتب معه كتاب وصية لملك السّويد على هذا النمط الواجب علينا أن نشهد له شهادة عادلة مخلصَة أنه في الأشغال التي كان فيها أسيراً أبلى بلاء حسناً، وأظهر الشجاعة التي لا تنتظر من أحد، وبالحقيقة استحق تعظيمنا، ومثل هذا المدح لا يكون بلا نتيجة.

فلماً وصل القبطان إلى وطنه بالكتاب رُفاه الملك إلى رتبة قبطان باشا، ثم لما أراد القيصر أن يشركه في الحظ والفرح أهل موسقو سافر في الجرار- يعني عربية الزحليقة- مع عياله، ومع عرضيين من الخفر؛ لإشهار ذلك الفرع فيها أيضاً، ولا تظن أن كل ذلك يعوق عن زيادة الأبنية والعمارات في هذه السنة التي من جملتها معمل لتكرير السكر، واصطبل كبير من الحجر للخيول القيصريّة، ومحال للعربات الإمبراطوريّة، وتكبير قصر الشتاء، وتأسيس أول مدرسة القسس إلى غير ذلك، وقد فاض النيقا في هذه السنة، ٥ و ١٠ كانون الأول، وبلغ ٧ أقدام، و٤ أصابع، وفاض الماء في الحارات، وقطع العبور، ومات بعض الناس، لكن ما هذا بأدهى وأمر من فيضان سنة ١٨٢٤، فلنكتف عن تفصيل هذا بتفصيل ذلك، والحدث الأصغر يندرج في الحدث الأكبر.

سنة ١٧٢٢ فيها قضى القيصر جزءاً من السّنة في أشغال حرب الفرس، وبنى أماكن خارج المدينة عند أخته وحارة بكنيسة للنجارين الذين يبنون المراكب.

سنة ١٧٢٣ فيها، وصل أميران (٧١/١) هيس هومبورغ إخوان، البكري عمره ١٧ سنة، والثاني عمره ١٦، وسألا الدخول في خدمة الروسية، وقبلا، وأعطى لكل رتبة قبطان وستة آلاف رُبل في السنة جامكية<sup>(١)</sup>.

وفيها ٢٦ آذار انسَر أهل المدينة بفرح أعلن أكثر من سائر الأفراح، وزاد به للسكان البسط والانشراح، وذلك أنه كان للقيصر الكسي ميخا يليوفيج زورق، وفي سنة ١٦٩١ رآه بطرس، وهو شاب في قرية آزمايلوف قرب موسقو، فولد ذلك في فكره عمل دننما في الروسية، وبناء هذا القارب المخالف لبناء القوارب المستعملة إذ ذاك في الأذهار جذب ملاحظة بطرس، وسأل عن أصل الزورق.

ولما علم أنه يمكن أن يعوم ليس فقط بواسطة المجاديف، لكن أيضاً بواسطة القلع ضد التيار، وحتى في الريح المخالف، اشتاق إلى وجود من يعرف أن يسيره، فكشف في موسقو رجل هولاندي اسمه برانت كان مستعملاً في أيام القيصر الكسي في الفاريقطة المسماة «أزول» يعني النسر، المصنوعة لجماعة التجارة الروسية على بحر كيلان، والمحترقة في سنة ١٦٧٠، تحت أسوار استراخان، حرقها قاطع الطريق رازين، لكن برانت تخلص من الحريق، وذهب إلى موسقو، وأل حاله في مدة عشرين سنة إلى الفقر المدقع، والضنك الموجه، لا يعيش إلا من صنعة النجارة، فأخذ إلى بطرس، وعمّر الزورق، ونصب فيه صاريًا وقلوغًا كافية، وصار مقاطعًا لتيار لاوزا بمرأى القيصر المتعجب من هذا المنظر الجديد من شأنه.

ومن ذلك الوقت صار برانت معلم بطرس الذي بالسرعة تعلم مسك الدفتر بالشطارة، وصرف أوقات البطالة في التفسح على أمواه (٧١/١) لاوزا والبرك التي قرب موسقو. فانظر إلى هذه الحالة التي هي غير مهمة في ذاتها، لكن تولد عنها الفكر في عمل دننما صارت في حياة مؤسسها سببًا لمجد روسيا الأثيل، وتمدنها الجزيل، وعزها الجليل، وجولانها في البحار إلى البر الأصيل «ومعظم النار من مستصغر الشرر».

(١) جمع جامكية، وهو: لفظ فارسي معناه مرتب الجندي أو الخادم، وأطلق في العصر العثماني على الأعطيات والمرتبات الشهرية والسنوية التي يتقاضاها الجند، والجمع جوامك. مصطفى عبدالكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦، ص ١١٩.

فلما تم الصلح المسبب لكل المنافع، والذي هو نتيجة هذه الدنما الظافرة في سافكات الوقائع التي هي ساعد المملكة، كما قال مؤسسها بحسن الملكة، وبسببها قلد بطرس بنشانات النصر الموفور، ولقب بالإمبراطور، وسلّم عليه باسم الكبير، والأب الخطير، لم يكتف القيصربعد إعلان أيام الفتوحات الناشئة عن اجتهاداته المهمات بمجازاة مشاركيه، ومكافأة معاوينة، بل أراد أن تتذكر الذرية جالب هذه السعادة السرمدية في زمان قليل بالنسبة لهذا الفتح الجليل، فأمر بإحضار الزورق من موسقو إلى شليسبورغ في ربيع سنة ١٧٢٣، بعدما استراح ٣٠ سنة.

وفي ٢٨ آذار مخرت الدنما المزيّنة بأحسن زينة في النيقا، وأطلقت مدافع القلعة، وأرسلت الدنما عند ديرنيفسكي، ومكثت طول النهار، وفي اليوم الثاني، وصل القيصرفي الزورق يسيره بنفسه هووكالوقكين والرئيس سيناوين، ويتبعه ٩ سفن، فلما وصل الزورق أدت السفن بنديراتها للسلام عليه، وضربت الطرنبيطات، وأطلقت المدافع، ودقت المويسيقى العسكرية.

وفي اليوم الثالث ذهب القيصرفي الزورق إلى المدينة، ولما وصل إلى المحل الذي فيه الآن دير سمولني، رحبت القيصرة بهذا الزورق، الذي هو أصل هذه العمارة الكبيرة، ثم لما وصل الموكب إلى مرسى كنيسة (٧٢١) والتثليث، أطلقت المدافع من كل طرف، وسلّمت العساكر على الزورق بعمل شنك، ودخل القيصر والعائلة الملكية، وأعيان الدولة في الكنيسة للدعا والصلاة، ثم خرجوا، وأطلقت لخروجهم المدافع، وعمل الشنك، ثم عملت وليمة في قصر سينات في غاية النفاسة، ودام في كل هذه المدة الانشراح وشرب الراح، أولاً على صحة القيصر، ثم على شرف الزورق، ثم على شرف ذريته، يعني الدنما، ثم عملت الحريقة في الليل.

ثم بعد هذا الموسم بأيام وضع الزورق في النشف وما جرى «إن السفينة لا تجري على اليابس»، وحفظ قرب مرسى الكنيسة، ولما علم القيصرتخلف بعض الملاحين عن حضور هذا الفرحة المتين غرمهم ١٥ زبلا لكل سفينة.

وفيها طاب الهواء في نيسان وآيار وحزيران، فكانت الدننما كل أسبوع تجول في النيفا وتتردد، وكان التفسح إذ ذاك في الزوارق من الحظ المؤكد، إذ لا سرور في هذه المدينة أعظم من طيب الهواء وانتشاع الغيوم وابتسام السماء، وهذا الزورق مكث مدة عيد فيها، فلو كان له نفس ناطقة لكان مسرور البال، أو لسان منطلقة لأنشد بلسان الحال<sup>(١)</sup>: (الوافر)

أنا والله أضلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتية تيتها

وبالجملة فقد صدق من قال<sup>(٢)</sup>:

إني أطلعت على الديار<sup>(٣)</sup> وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد فتارة يحمل في قنجة وتدور حوله الدننما، وتارة ينزل فيه القيصر ويجدف بنفسه، وفي آخر الأمر عملت مسخرات أسبوعاً لإشهار النصر أيضاً، فانظر كيف اعتبر القيصر هذا الصلح الكثير (٧٢/١)؛ المنفعة للروسيا، وأنزل الزورق في القنجة وعام والدننما تشيعه حتى وصل إلى باب القلعة، وأخرج إلى الساحل، وسلم لحاكم القلعة ليحفظ فيها تذكرة للدننما، وهذا الفرح المصنوع لهذا الزورق كان كثير المصرف جداً، فالبارود المحترق وحده كان ثمنه ١٢٠٠٠ زبل، والقارئ يفهم عظم هذا المبلغ في ذلك الوقت، ومع أن بطرس كان يحب التدبير في المصرف، لكن هذا عيد أساس العمارة التي بها شرفه، ولذلك سمي هذا الزورق جد الدننما.

وفيها وصل سفير الفرس، ومعه تبع ثلاثون نفرًا، وأطلق لقدمه المدافع وشيعة العسكر إلى البيت المعدله وقبله القيصر، وكانت نتيجة هذه السفارة اعتراف الفرس بترك خمسة أخطاها للروسيا، وهي ضاغستان

(١) هي: ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن التاصر. توفت في حدود سنة ٤٨٤ هـ. الصفدي: الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج ٢٧، ص ٤٥٠؛ وابن شاعر الكشي: فوات الوفيات، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٥١-٢٥٣. والبيت في الوافي بالوفيات، مصدر سابق، ج ٢٧، ص ٤٥٠؛ وفوات الوفيات، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٥١.

(٢) هو: محمد بن محمد بن حسن، أبو بكر، جمال الدين، ابن نباته المصري. توفي سنة ٧٦٨ هـ.

(٣) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢١٦-٢٢٣.

(٤) في ديوان ابن نباته المصري: وإذا نظرت إلى البقاع. انظر: ديوان ابن نباته المصري الفاروقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ص ١٦١.

وشيروان وكيلان ومازندران واستراياد، ومن الأبنية في هذه السنة بيت كبير من الحجر في وسيلي اوستروف لأجل المدارس، وهذه البنية أكبر ما بني في هذه الخمسة والعشرين سنة، وهي موجودة إلى يومنا هذا دليلاً شاهداً على سرعة زيادة المدينة، وكذلك موجود الآن بيت بطرس الكبير، وقصر في جنينة الصيف، وكنيسة التثليث، وجزء من أكديميا العلوم التي كانت قصر الملكة براسكوفيا فيدروفنا وتيرباولوفسكي، وفيها كان مدخول المدينة ٥٨٠٠٠٠ ربل، مدخول خمسة بيوت الآن، وفيها مات الأمير بوتورلين، وحضر مشهده أهل القصر، وقبل إخراج جسده من البيت شرب الحاضرون على روحه كؤوس الخمر، وبعد الرجوع تغدوا في بيته وشربوا كذلك الخمر على روحه (٧٣٦) سنة ١٧٢٤.

من أعظم الأبنية فيها أكديميا العلوم لتعليم أشخاص يكونون علماء في المملكة، ولتصنيف الكتب النافعة، وحل المشكلات، وكتابة الوقائع والتاريخ، والملاحظات المتعلقة بالروسيا، وهذه الأكديميا تتركب من رئيس واثني عشر عضواً ماهرين في أنواع العلوم، وكاتب وناظر كتب، وأربع مترجمين، واثني عشر تلميذاً، وعين للأكديميا ٢٤٩١٢ ربل، ودعي كثير من العلماء المشهورين الغرباء للدخول فيها ليكون من أعضائها، وكان بعضهم على جناح السفر إلى بتربورغ، لكن الله ما أذن لمؤسس الأكديميا أن يعيش زماناً طويلاً حتى يرى مجلس فتحها الذي ما كان إلا بعد وفاته ٢٥ كانون الأول سنة ١٧٢٥.

وذلك أن الأشغال الناصبة والحركات اللازمة أضعفت القيصر وأوهن جسمه، وألجأته إلى أن يسافر أوائل نيسان سنة ١٧٢٤ إلى الماء المعدني في أولونيتز، كما هي العادة في مداواة المرضى بالذهاب وشرب الماء المعدني مدة من السنة، خصوصاً في الربيع، ونفسه المتعودة على الأشغال ما رضيت براحة البال، بل اشتغل في مدة هذا العلاج بخفة من العاج، وأرسلها إلى بتربورغ في كنيسة القلعة، ثم نقلت بعد ذلك إلى قاعة العجائب، ومنها إلى كونست كامير في الأكديميا، وحفظت إلى هذا الوقت، هي وعدة أشياء منسوبة جميعها إلى بطرس الكبير.

ثم رجع القيصر من أولينتز إلى موسكو، وأشهر ترويج القيصرة بعده، لأن الموت لم يبق له ذكراً وارثاً للتخت، ثم رجع إلى بتربورغ، وزار قصوره الحظية في بترغوف وغيرها، ثم لما أتم لقومه (٧٣١هـ) الصلح على أحسن الأنواع بعد الحرب الغول ذات الأوجاع، وأراد أن يقصد في وجه عالمه الأرض التي اشتراها بلحمه ودمه التي كانت عرصّة الخطوب، ومعتزك الحروب، عزم على نقل عظام الأمير الكبير إسكندر النيقسكي من فلاديمير إلى بتربورغ، ودفنها في الدّير المبني بهذا الاسم؛ لأن هذا الأمير قبل ٤٨٠ سنة كان غلب السويد وتوج بالنّص، وعمل موكب عظيم لهذه الواقعة، وذهب العظام للقاء العظام من سبعة فرست من الدّير، ووضعته في السفينة التي مسك القيصر دفتها، وشجعان دولته جدفوا إلى الدير، وأطلقت المدافع، ودقت النواقيس عند إخراج النعش الذي رفعه القيصر وأعيان الدولة، ووضعوه تحت قبة من القטיפّة التي تعلقت بأهدابها الأمراء، والقسس شيعوا المشهد في لباس فاخر على القنطرة الجديدة المبنية بالخصوص على تسورن ريتسكه، يعني النهر الأسود، ودفن بمرأى الخاصة والعامّة في ٣٠ آب، وأمر أن يشهر كل سنة هذا اليوم السعيد على روسيا، وأن يعوم فيه الزورق الذي قدمنا ذكره آنفاً.

ومرض القيصر الذي ظهر عند رجوعه لم يزل في ازدياد طول هذه السنة، ولهذا ما فارقتّه الأطباء، ولما وجد بعض خفة في شهر أيلول عزم في أوائل شهر تشرين الأول على الذهاب في سفينة مباشرة أشغال خليج لادوغة مع منع الحكيم له لكن لازمه، ومن هناك ذهب إلى معمل الحديد في أولونيتز، وطرق بيده صفحة حديد وزنها ٣ يود، وهي محفوظة في كونست كامير مع مخلفاته.

ثم رجع (٧٤١هـ) إلى لاختا في عشية مطرة كثيرة الرياح، فرأى في البحر زورقاً أتياً من كرونشتاد يلعب به الأمواج، وقف في الرمل، فأرسل لإعانتته زورقاً، ولا زال متّبعه نظره فلا حظ غلبة الموج للجميع، وأخذته الرقة، فلم يقدر أن يبقى ناظراً بلا فائدة، ونسي مرضه وألمه، واندفع في زورق، لكن الرمل منعه من القرب من الزورق الراسخ؛ فنزل في الماء إلى الحزام بلا حزم لفرط الرافّة وعموم الزورق وأذهب الرجفة، وهذه الرقة الأبوية والشفقة الرحمانية حركت

ساكن المرض، وضاعفت الضعف والمرض، وألجأته إلى لزوم الفراش، وكانت سبباً لاخترام المنية وفراق المعاش. فلما ازدادت علته في ١٦ كانون الثاني سنة ١٧٢٥، روجعت كل الحكماء الموجودة في بتربورغ، ولكن إذا جاء الأجل بطلت الجيل:

[مجزوء المديد]

كُلُّ شَيْءٍ قَاتِلٌ حِينَ تَلْقَى أَجَلَكَ<sup>(١)</sup>

ثم في ٢٦ وجد خفةً لإملاء بعض فرمانات، لكن في ٢٧ ثقل عليه العياء، وأراد أن يكتب، لكن وقعت من يده الريشة، وأذنت بدنو فراق المعيشة.

وفي ٢٨ انطفأ بموته شهاب الروسيا الثاقب، راجم شياطين الأوهام الكواذب، وخسف بدرها المنير بعد أن تكامل وتناقص حتى حاوله المحاق وزاؤل:

تَوْقَى الْبُدُورَ النَّقْصَ وَهِيَ أَهْلَةٌ وَيَبْدُو عَلَيْهَا النَّقْصُ وَهِيَ كَوَامِلٌ<sup>(٢)</sup>

وكسفت شمسها المنيرة في الأفاق، ففاضت عليها بسحاب الدموع الآماق، فسبحان من لا ينفد ملكه، ولا يبقى إلا ملكه، له الحكم وإليه ترجعون.

(١) يُنسب البيت إلى السلركة أم السليك من شاعرات العرب في الجاهلية، في: ابن سعيد الأندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، تحقيق نصره عبد الرحمن، ج ١، مكتبة الأفضى، الأردن، ص ص ٤٣٧ - ٤٣٨.

(٢) نُسب البيت لأبي العلاء المعري عند ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٥٠.

obeikandi.com

## ٧٤/١] الفصل الثالث

لما انتقل القيصر بطرس الكبير إلى الدار الآخرة، وأبقى اسمه مغلداً ومفاخرة، خلفته في الجلوس على تخت المملكة المتينة زوجته يكترينه، وقد سلكت نهج زوجها، فوضعت المملكة في أعلى أوجها، وبنيت قريبا من مائتي مدينة، وملكت قريبا من ثلثي بلاد اللية الحصينة، وبهذا السبب ما زادت في بتربورغ من الأبنية ما يستحق التسمية، ثم جلس بعدها على التخت بطرس الثاني حفيد بطرس الكبير الأول، وكان عاش طول عمره تقريبا في موسقو، وقد أمر بعمارة بعض جزائر، وبنى في شارع نيفسكي كنيسة اللوتيريانيين، واتخذ قصر منيشيكوف في وسيلي أستروف مسكنا له، وسماه بتسمية نوفوبري أوبراژانسكي، والقيصرة حنا يوحا توفته<sup>(١)</sup> أظهرت رجحان بتربورغ، وأبدت ذلك بأفعالها، واختارت لسكانها قصر قبطان باشا القونت ايراكسين على النيقا قرب الترسانة الذي أعطاه له القيصر بطرس، وبأوامرها أحيط بجدران من الحجر، لكن غير لطيفة، وبخندق عميق، ثم هدم بعدها، وبنى محله قصر الشتاء، وهي التي أمرت بصنع الهلال الكبير المذهب اللامع على برج الترسانة، وهذا الهلال يهتدي به من لا يعرف حارات بتربورغ.

وفي زمانها أيضا عمقت مويكه، وبنى محل كبير للعسكر عند قنطرة إسماعيل، وبديل بيوت الخشب القديمة كانت بيوت الحجر، وفي ذلك الوقت صدر الأمر العالي بأن في حارة مليون، وعلى الساحل (٧٥/١) القصري لا يبنى

(١) إمبراطورة روسيا هي بنت (إيوان) أخي بطرس الأكبر، ولدت سنة ١٦٩٢ وتوفيت سنة ١٧٤٠، تولت ملك روسيا سنة ١٧٣٠ حتى ١٧٤٠، عقب وفاة بطرس الثاني، واتحدت مع النمسا في مسألة وراثة بولونيا، ونجحت في انتخاب أوغست الثالث ملكا لها، وحاربت الترك من سنة ١٧٣٥-١٧٣٩. للمزيد انظر: محمد فريد بك المحامي، مرجع سابق، هامش 1، ص 323. Moss, Walter G., A History of Russia, Second-Edition, Vol.1: to 1917, Anthem Press, 2005, p.257-258.

غير بيوت الحجر، ونقل بيت الأجزاء من القلعة إلى حارة مليون، وزيدت عدة الكنائس ببناء كنيسة «الصعود» التي سميت باسمها حارتها فوزينسيكي أوليسا، يعني «حارة الصعود» وصورت القيصرة بنفسها الحارات.

وفي سنة ١٧٣٧، ما كانت تجاوزت بتربورغ من ناحية الجنوب حدود فونتانكه التي لا تتميز بحسن الأبنية، وفي الجهة المسماة فيبورغسكي سترنا ما كان زيادة على معمل البوزة الهولاندي المنقلب إلى أكديميا الحكمة والجراحة إلا حارتين أو ثلاثه، وكنيسة سامسون.

وفي ذلك الوقت كان الشغل دائراً في حارات وسيلي اوستروف المسماة الخطوط، وما كان جاهزاً حقيقة إلا الأول وبتربورغ القديمة، كانت كثيرة السكان، لكن جزيرة الأجزاء التي يغرقها من بتربورغسكي سترنا خليج كاربوف لم تكن إلا خميلة عريضة غلباء منظفة مملوءة ليس فقط بالنباتات الغريبة والأوربية، لكن أيضاً بالنباتات الآسية والأفريقية المحفوظة بغاية الاعتناء.

ولم تنزل القياصرة تعتني ببيتربورغ التي صارت تحت المملكة الجديد، لكن بلوغها إلى هذه الدرجة التي نراها الآن من الفخر والنظافة والحسن، اقتضى زماناً طويلاً ومالاً جزيلاً، وتعباً جليلاً، وذوقاً جميلاً واليزبيت على الخصوص اعتنت بها، ففي أيام ملكها شادت كنيسة نقولة البحري المفتخرة بقباب مذهبة، ومنارة كبيرة للناقوس، وكنيسة الخلاص في سينوي، وعلى ساحل النيقا أمام أوختا عند حوش سمولني دير التثليث للنساء، وكنيسة ٧٥/١ ظا التثليث المشهورة التي بناها المهندس المشهور القونت رستريلي، وهذا المعبد الكبير بقي ثلاثين سنة بلا أبواب ولا شبابيك، وكمل بهمة أبهة القيصر الحالي نقولة الأول<sup>(١)</sup>.

(١) وُلد نقولا الأول عام ١٧٩٦، وكان قيصرًا لروسيا خلال الفترة (١٧٩٦-١٨٥٥)، عُرف عنه الحكم القاسي، وله العديد من الإصلاحات حيث صدرت أول مجموعة قانونية روسية حديثة بموافقته عام ١٨٣٥، ووافق على تحسين أوضاع الفلاحين، وساند بناء سكة حديدية في روسيا، تُوّفي عام ١٨٥٥. لمزيد من التفاصيل راجع: فراس البيطار، الموسوعة السياسية والعسكرية، ج ٣، دار أسامة للنشر، عمان، الأردن، ٢٠٠٣، ص ١٠٢٧.

وهذا القونت قد زين المدينة في أيام القيصرية إيليزبيت بقصرانيتشكوف في سنة ١٧٤٨، وابتدأ قصر الشتاء في سنة ١٧٥٤، وكمل في سنة ١٧٦٢، بعد موت القيصرية، وفي سنة ١٧٥٥، وُضع أساس غوستيني دفور يعني قيسارية التجار، ولكن أكلته الحريقة، وما كمل ووصل إلى ووصل إلى هذا المنظر الجميل الذي هو فيه الآن إلا في مملكة كترين ووصل إلى هذا المنظر الجميل الذي هو فيه الآن إلا في مملكة كترين الثانية سنة ١٧٨٥، وكترين الثانية اعتنت جداً ببتربورغ وكبرتها وحسنتها، واجتهدت في فعل كل الوسائط التي صيرتها أول مدينة في الدنيا.

ففي أيامها، بلط ساحل النيفا بالحجر الصوان بغاية الإحكام والإتقان، وكذلك سواحل الخلجان، وعملت بالوعات في الحارات، ومهدتها بالتبليط اللطيف، وعملت لها مماش موصلة إلى القصور الخارجة عن المدينة، ولأجل إحياء هذه الطرق التي في وسط الغابات وتسهيلها، وزعت هذا الفضاء إلى الأبنية القريبة منه في كلا الطرفين إلى اتساركي سلو وستريلنا وبترغوف، وأبيات الصيف اللطيفة بحدائقها الظريفة وغدرانها الصافية، وعيونها الجارية، وزينت بتربورغ من ناحية ريغه بباب النصر العظيم، وزاد عدد قصور الخط ببافلوفسكي وغاتشين، وبنيت ثلاث قرى نيمساوية حول المدينة، ووضعت أثر البطرس الكبير ممدن الروسية، وكتب عليه لبطرس الأول من كترين (١٧٦١) والثانية.

وفي مملكتها ازداد قصر الشتاء عظماً وحسناً ومعنى، وزين زينة خضعت لها الثريا، وهذا القصر العظيم، مربع الشكل قليلاً، وطوله ٦٥ سجين وعرضه ٥٠، وسمكه نحو ١٢، وفي وجهه الأصلي فرجة كبيرة جداً في الوسط مكشوفة، والدور الأول يسكنه الخدمة والمقدمون ونحوهم، وفي الدور الأخير يسكن الأعيان من الرجال والنساء الذين يسكنون دائماً في القصر، وفي الدور الوسطاني مقعد كبير فيه مجلس القيصر للسفراء، وعمل الخدم والعبادات القيصرية.

وهناك مقعد الرقص ومقعد المرمر ومقعد جرجيس المزين ببرايات كل العساكر وبيارقهم، ومقعد التخت؛ لأن فيه تختاً عظيماً على الذوق القديم بأربع درجات مغطى بالقטיפفة الحمراء، وهذا التخت يتركب من كرسي عظيم مغطى أيضاً بالقטיפفة الحمراء وقبة مزينة بالتاج القيصري، وكل التاج القيصري الكبير مسبوكة من العسجد، وفي خلاله القטיפفة الحمراء، ومرصع بالجواهر، وأعله مرصع بالياقوت الكبير كبراً خارجاً عن العادة، والتاج الصغير مرصع بالألماس ورأس قضيب المملكة مرصع بقطعة الألماس كبيرة اشترتها القيصرية كثرين الثانية من الرومي سافراتسيا بثمان قدره نصف مليون زبل فضة، يعني بمليون وثمان مئة ألف زبل ورق؛ لأن الزبل الفضة في زمان كثرين كان يساوي ٣ زبل، و٦٠ كبيك، والآن يساوي ٣ ربل و٥٠ كبيك، وعبرة ذلك بالقروش الرومية ٩ ملايين قرش؛ لأن الزبل يساوي ٥ قروش.

والعسكرة القيصريّة مرصعة إلى أكثر من النصف بجواهر ثمينة مختلفة النوع؛ ٣٧١ قطعة، والمقعد الفيلىد مارشالي مزين بصور الفيلىد مارشالات الروسية الملقبين بهذه الألقاب، زادونايسكي وزيمينيكسكي وإيريفانسكي بسبب نصرتهم.

والمقعد الحربي، يعني مقعد سنة ١٨١٢، وجدران مرصعة بصور الشجعان الذين حاربوا لأجل الوطن، وهو بين المقعد الأبيض، ومقعد جرجيس متسع جداً، طوله ٧٧ ذراعاً روسياً، مقبب بغاية الصناعة، وفيه صورة القيصر اسكندر على الحصان الأبيض الذي ركبه لما راح باريس، وفي زمان كثرين كانت التحف والجواهر القيصريّة، وخواتم الألماس والمنشقات الذهب المرصعة بالألماس والنشانات والرايات والشيش بقبضة ذهب، وغير ذلك في دواليب أبوابها من الزجاج موضوعة في قصر الشتاء، لكن الآن هذه الأشياء محفوظة في الأوضة القيصريّة في قصر اينشكي.

قلت: قصر الشتاء هو محل إقامة القيصر وحاشيته في الشتاء، وهو من عجائب الأنبيّة، وظاهره ليس محلي بالألوان كغيره من العمارات اكتفاءً بحسن شكله ولطف هندسته<sup>(١)</sup>:

(الطويل)

وما الحلّى إلا زينةً لنقيصةٍ      يتمّم من حُسنٍ إذا الحُسن قصّراً  
فأمّا إذا كان الجمال موفّراً      كحُسنك لم يحتجّ إلى أن يزوراً

وقد دخلته مرات، وفي أول كل سنة في المساء يفتح ويؤذن لعامة الناس ذكورا وإناثا بالدخول بأوراق أكثر من ثلاثين ألفاً، ويسمى ذلك رقص المسخرة، وليس في الحقيقة رقصاً، إنما هو تفسح، فتدخل الناس في المقعد الأبيض ومقعد المرمر، وبعض مقاعد آخر كبيرة للغاية، فما أطف هذه (١٧٧١) والمقاعد وأبهجها، وفي أركان بعض المقاعد أواني من الذهب وأشياء عجيبة وصور غريبة، وفي هذه الليلة يدور القيصر يتفصح مع عائلته، ويرى قومه كالآب الشفوق مع أولاده، ويكثر الزحام جداً حيث القيصر وعائلته، بسبب أن كل شخص يتمنى رؤيتهم، فهو حقيقةً محبوب في قومه لا يشبع من رؤيته، سواء كان في القصر أو في غيره.

ومن جملة من يرى من الناس، الكرج<sup>(٢)</sup> والشراكسة والتاتار في لباسهم الأصلي، وهناك بعض سودان من خدمة القصر، وكل من أراد الشاي، أو شراب العسل، أو بعض مأكّل، ذهب إلى المحل المعد لذلك، وأكل ولا يدفع شيئاً، وقد أصابت هذا القصر عين الكمال فاحترق، وما قدروا على إطفاء النار منذ عشر سنين، لكن همّة ساكنه القيصر الحالي أعادته إلى رونقه الأولى الحالي، بل أحسن في أسرع زمن، ومن مدة سنوات سقط سقف مقعد جرجيس، لكن عمّر بالسرعة.

(١) البيتان للسان الدين ابن الخطيب، ت ٧٧٦ هـ. المقرئ التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، ج ٥، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٦٥.

(٢) هي مدينة تقع ما بين همدان وأصبهان في نصف الطريق، وإلى همدان أقرب. ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج ٤، ص ٤٤٦.

وهذا القصر كالمدينة في الكبر والاتساع، وقد ذهبت عند بعض المعارف الساكنين فيه، فعددت مئة سلم، مع أن هذا المعرفة ليس ساكنًا في الدور الأخير، والمحل المحرم دخوله مطلقًا، إنما هو حيث يسكن القيصر والعائلة الإمبراطورية، أما المجال الآخر فغيرها يجوز لمعارف سكانها أن تزورها.

وفي شهر أيار حين يذهب القيصر وعائلته إلى اتساركي سلو وبتروف لتقضية الصيف، هناك يجوز الدخول بأوراق في مسكن القيصر والعائلة الإمبراطورية؛ للتفرج على هذه البنية العجيبة، وما فيها من البدائع الغريبة والذخائر اللطيفة.

١٧٧١/١ وفي سنة ١٧٦٨، وضع أساس كنيسة إسحاق، لكن غير هندستها القيصر إسكندر الأول إلى أحسن، ثم تلاه أخوه القيصر الحالي، وفي طول مدة أيامه، والشغل فيها دائر، وهي الآن على طرف التمام بقبابها المذهبة العظام، شاهقة العلو والارتفاع، محكمة الأبنية والأوضاع، خصوصاً القبة الوسطى الكبرى، فإنها تكاد أن تنال الشعري، ولا يمكن الوصف أن يحدها لانثرا ولا شعراً، بل العين وحدها بصحائف هذه المحاسن تقرر حين تقرأ.

وفي سنة ١٧٦٨ وضع درابزي كبير عجيب الوضع حسن الصنع حول جنيئة الصيف، وهو يسحر عقول الوافدين بحسن سبكه، وفي سنة ١٧٧٠ ابتدئ قصر الممر على النيفا، وكمل في سنة ١٧٨٣، وهو يتميز على الخصوص بأنه لا يوجد فيه أصلاً خشب، بل بمثابته دائماً الممر والصوان والمعادن، وتبدل بهذه القصور والأبنية الحسان الصحارى التي أحاطت بالنيفا، وكذلك بني قصر الأمير توربيسكي الذي أسس دنما البحر الأسود، وفتح بندروا وچاكوف، وضم القرم إلى روسيا، وفي شأنه قالت كترين الثانية: «هو وحده يفهم مقاصدي».

وغرس في هذا القصر جنيئة الشتاء المعروفة الآن «بجنيئة توريد»، حسنة للغاية حتى أنه لا يباح لكل الناس دخولها إلا بورقة إجازة لئلا تفسدها العامة، وفي هذا القصر سكن عباس مرزا حين أرسل سفيراً إلى بتر بورغ من طرف شاه الفرس، وعمل الأمير بوتومكين وليمة عظيمة لكترين، ولما مات بوتومكين أوصى بهذا القصر إلى كترين، وهي تشريفًا له سمّت القصر «قصر توريد».

وكترين الثانية اعتنت أيضًا (٧٨١) بإحياء العلوم والصنائع، فشادت أكديميا التصوير على ساحل النيفا الشمالي، وأحسنت وضعها الذي بقيت عليه إلى الآن، وهي كبيرة شاهقة في العلو، فيها كثير من الصور البديعة، وفي كل سنة تزداد لاعتناء هذه البلاد بهذا العلم حتى يسمونه الصناعة النفيسة، وأمامها على ساحل النيفا صنمان كبيران من الحجر يسميان أبو الهول، جلبا من مصر سنة ١٨٢٢، وتحتهما سبعان من الحجر، فهما على الحقيقة مسلياني في هذه المدينة، إذ ليس من بلدياتي أحد غيرهما فيها.

وقد سئلت مرة: هل لي بلديات في هذه المدينة؟ فقلت: نعم لي، فقيل: من؟ فقلت أبو الهول، فضحك السائل.

وفي سنة ١٧٨٤ إلى سنة ١٧٩٠، بني على هذا الساحل أكديميا العلوم، لكن أقل علوًا، وفي هذه الأكديميا العلماء الروسيون والغرباء، وينتسبون إلى الأكديميا فيسمون الأكديمين، وكل منهم مشتغل بصنف من العلوم، بعضهم بالرياضيات مثل مسيو بنياكوفسكي، وبعضهم بعلم المعادن مثل مسيو كفر، وبعضهم بالعلوم بالشرقية مثل مسيو فرين، فإنه مشتغل بالعلوم المتعلقة بالشرق من معاملات، وتاريخ ونحو ذلك.

ودائمًا تسافر الأكديميون على مصروف الميري لكشف بعض الأشياء، كما يسافر مسيو كفر إلى سيبير محل المعادن، ومسيو بروسي إلى تفليس<sup>(١)</sup> لتحقيق «تاريخ الكرج وأثارهم»، وفي آخر سنى مملكة كتزين، وضع أساس بيت مكتبخانة العمومية الحجري في شارع نيفسكي، وبنى التياتر الكبير الذي كان أولًا في سوق سنوي (٧٨١) مزينًا لحارة الجنينة، مثل اللعبة، ومحلّه صار القومبانية: يعني مستودع المال، والسلف بالمكسب وبالجملة، فكترين الثانية أكملت زينة هذه المدينة السامية، ووقت المملكة إلى أعلى درجة، وهمتها كانت بهمة الرجال مزدوجة، بل أعلى من همة الرجال، وحق فيها قول من قال<sup>(٢)</sup> :

(١) تفليس : هي أكبر مدن الكرج.

(٢) البيت منسوب للمتنبي: الديوان، ص ٢٥٧.

ولو كان النساء كمن رأينا<sup>(١)</sup> لفضّلت النساء على الرجال  
 ومع أن تملك القيصر بولص كان قصير المدة، لكن كان نافعا  
 لـتريبورغ؛ لأن هذا القيصر بنى عدة مساكن لطيفة للعسكر ولتعليمهم،  
 وبنى في وسيلي أوستروف مدرسة البحارة، وكمل بيت تعليم الأطفال  
 اللقطاء، وبنى بيتا لسقط العسكر في جزيرة الحجر، وبعض قشلات وبيوت  
 لإيواء الفقراء الطاعنين في السن، وبنى قصرًا عند جنينة الصيف صار بعده  
 مدرسة المهندسين، وبنى في شارع نيفسكي محلاً للتجار يسمى «دومه»، وزينه  
 ببرج مربع، وبلط ساحل مويكه في طول ١٥٠٠ سجين، وزين كثيرًا شارع  
 نيفسكي الذي كان إذ ذاك في وسطه بولفار، يعني سطور من الشجر لإظلال  
 المارين، ووضع لجدّه الكبير بطرس الأول أثرًا أمام قصره، وأثر رومانستوف  
 في المرج القيصري، لكن نقل بعد ذلك أمام أكديميا التصوير، ومكتب  
 كديت، وأسس أيضًا أكديميا الطب والجراحة، ووضع لكنيسة كزان  
 الأساس، وكملها بعده وارث تخته، وولي عهد القيصر اسكندر الأول<sup>(٢)</sup> الذي  
 بنى الممشى على النيفا أمام جنينة الصيف، ونصب (١٧٩٦) قنطرة ترويسكي  
 قرب جنينة الصيف، ونصب في المرج القيصري أثر سقوفاروف في سنة ١٨٠١،  
 ليس بعيدا من قصر المهندسين وقشلة للبحرية، واينيستيتوت كترين لتعليم  
 البنات الأكابر، وعند شارع فوسكريسنكي بنى كنيسة المصابين، ومن  
 أعظم مبانيه قصر الوزارة، ودواوين الأشغال بقبوته العظيم التي فوقها صور  
 خيول، وهو عظيم جسيم يشتمل على أقسام منها: الديوان الأسي، وهذه البنية  
 العجيبة أمام قصر الشتاء وبينهما ميدان.

وأما القيصر الحالي نقوله الأول، فإنه ما قصر عن سلفه ولا أبقى تعبنا  
 لخاله، إذ قد صرف اجتهاده إلى ما يكمل المدينة والمملكة، فبنى تياتر  
 ميخائيل والتياتر الإسكندري الذي بناه باسم زوجته القيصر اسكندرة،  
 ومجمع الأعيان، وقد عبث به بنان الحريق منذ سنين، لكن تدورك الخطر

(١) في الديوان: فقدنا.

(٢) للمزيد عن فترة حكمه انظر: Moss, Walter G., Op. Cit., p. 334.

وتلوفي الضرر، وبنى عدة حارات منها حارة مورسكوي وكازفاني، وأحدث بلفار جديداً في طرف حارة غالدني، ومن أفعاله الجميلة تبليط شارع نيفسكي بقطع الخشب المسهلة لجري العربات، وأمره بقلع الأشجار التي كانت في ذلك الشارع، وتبليط محلها ليتسع الممشى، وهذا عين الصواب؛ لأن هذه الأشجار كانت في الشتاء ثقيلة المنظر، مضيقاً المعبر، وفي الصيف لا حاجة لها في ذلك المحل، للاستغناء بالخباثن عنها (٧٩/١ ظ)، ونصب في الميدان أمام قصر الشتاء عموداً شاهقاً في العلوكله من الصوان المائل للدهمة أثراً لأخيه إسكندر الأول، ليس له في الدنيا نظير، وهو أطول من ٣٣ سجين، فهو أطول من جميع الآثار الموجودة في الدنيا حتى من عمود الصواري بإسكندرية، والحجر الكبير جلب إلى بتربورغ في سفنية مبنية له بالخصوص ١ تموز سنة ١٨٣٢، وأخرج إلى الساحل ١٢ تموز، ورفع بإعانة عسكري الخفر الذي له صفيحة الفخر سنة ١٨١٢.

وفي ١٣ آب، وإلى نصف سنة ١٨٣٤، حصل فيه الشغل، والعمود كان أولاً مغطى بالأشجار، وبعد ذلك هذا الأثر الباقي ظهر لكل عين في يوم عيد اسم إسكندر ٣٠ آب سنة ١٨٣٤، تحفة سنوية لهذا العيد الكبير، وسحراً يخطف أبصار الجم الغفير، وقاعدته أيضاً من الصوان، وعمل موكب عظيم حفل، وعملت وقدة في المساء في الميدان، والحارات، ومن جهة قصر الشتاء مكتوب عليه الروسية تشكر إسكندر الأول، وعلى أعلاه معلق صليب كبير، وصورة ملك ماسك الصليب بيده اليسرى واليمنى مشيرة إلى السماء، ويفعص برجله ثعباناً، وحوله الآن فينارات تولع بالجاز كل ليلة، ويحسن هنا إيراد القصيدة الفارسية التي قالها في هذا الأثر صديقنا وعزيزنا الجنرال مرزا جعفر طوبجي باشا معلم اللسان الفارسي في المدارس القيصريّة ببتربورغ، وهاهي مثنوي :

أزین درسکنتم کهی درستوه  
بکاخ سیهرش ستون ساختند  
جه کغتم بکردون ستون کرواست  
۱/۱۹۸۰ وازین به بمطلب نبا شدکواه  
بلی دربر هیکل این ستون  
نه وهم شتابان وفکر بلند  
نظر رابسرعت به یحشنی شود  
شند جند جاتا باوجش رسد  
بمهر برادر برادرز مهر  
برافراخت این ناموریا دکار  
بسی بکرزدکزنشان جنین

که یک قطعه سنکست این یاره کوه  
خردخیره کردوکه جون ساختند  
مکر سوی افلاک راه دعا است  
که باشد ملک رابوش جلوه کان  
ستون بیستونست وانن بستو  
برار دور اسرابز کمنند  
به ست یلی این نشان  
بنام یکی ینونوشین روان  
جومهر فرروزات بطاق سیبهر  
برافروخت این مشعل روزکار  
بنازد بکیتی بساط زمین<sup>(۱)</sup>

### و كذلك قصیدته التركیة وهی مثنوی:

بونه شوکتلومها بتلو بنادر کورنن  
یا بوکیم طاق فلکدن اصلوب قندیل وار  
یا که مشعل قونولوب محفل اهل زمنه  
حرت هفت عجائب جهان اولدی بوکون  
ای شاهنشاه قدر قدرت وفرخنده نشان  
حقدن امنداد که که البتة که شاهد بویتر  
کوه قنلا دبلوب عزمکی یردن قوبدی  
یا کم افلاکدره شکر و ثنادر کورنن  
ملک قرق شکوه آنده اولوب مجمره دار  
برتوشوکت و ابهت صالوب هرابخمنه  
غیرت جمله غرائب زمان اولدی بوکون  
بازوی سلطنته قوت وهم جسمنه جان  
که اولوبدر سکا منقاد دخی بحریله بر  
بحر بلطق ایشدوب امرکلا یجون پراویدی

(۱) تم ترجمتها فی کتاب محمد عبّاد الطنطاوی، تحفة الأذکیاء بأخبار بلاد الروسیا، قدّم لها وحرّرها  
د. محمد عیسی صالحیة، مؤسسة الرسالة، بیروت، ۱۹۹۲، ص ۱۸۳. تسيطر علیّ الدهشة  
أحياناً... ویمتلکني العجب، مما یجعلني أتساءل أهو حجر واحد أم جزء من جبل. ذاك الذي  
صنعوا فيه عاموداً لقصر الملك، عاموداً یحار العقل فی کیفیة صنعہ. ترى ماذا أقول لو أدرت  
الحديث عن هذا العمود؟ یجدر بي أن أقول إنه طریق توصیل الدعاء إلى السماء. ولا أول علی  
هذا من صورة الملك المنقوشة علیه والمتوجه لأعلاه أجل، إن هیکل هذا العمود یذكرنا بنفس  
بیستون فعن طریقہ یدرك ذوو الحجی - دون وهم - کیف تلحق الذلة بالأسرى. وترى العین علی  
الغور دلیل ذلك. حين تشهد الصليب وقد رفعتہ ید الملك لأكثر من سبب تم الاحتفال.. وقد  
جاء تخليداً للذکری راحل عظیم بالحج أحياناً هذا ذکری أحد العظاما

٨٠٧/١ ألباغوشنه اولداغى نوابه بتورروب يعني كيم ساحل درياى نوابه كوتورروب  
دروب او زرنده ملك اشته اشارت ايل قالدروب ال كوكه بونكتني كويا سويل  
كه كيمك عد ليله عالمده ايشى اوله بنام ملكوت فلك البتسه اوله اكامقام  
بويله برخسرو باحشمت ويرهمت ومهر ساحه دولته سايه ينجه كيم مهر سبهر  
ابله بريادشر نامورك ياديجوت ذكر خيرى بلد اول دادكرك آديجون  
بيش افرواج بلا سد سكندر ديكدى مظهر حسرت هل ملت وكشور ديكدى

ومن متأثر هذا القيصصر طريق الحديد التي حدث فيها الشغل من مدة سنين  
بين بتربورغ وموسقو، وإلى الآن ما تمت، وكذلك القنطرة المثبتة، وكان فيها  
الأشغال في مدة الحديد بدق الأخشاب في الحديد، والأعمال الشاقة، وقد تمت  
الآن، (١٧/١٨) وفي أيام بطرس الكبير ما كانت على النيقا قناطر بالكلية،  
وكانت الناس تعدي على القوارب، كل شخص يدفع كبيك، لنفع الخزنة  
أو أحسن لنفع المدينة، وعلى مويكه وفتنانكة كانت قناطر نقالة يمكن  
رفعها، لكن لا يمكن أن يمر عليها أكثر من عربة بفرسين، وأما الآن فعلى  
فونتانكة ومويكة من كل جهة قناطر في أعلى ما يكون من الحسن  
والإحكام من الحجر الصوان والدرابزي الحديد الذي في غاية الذوق، وكذلك  
على جميع الخلجان، والكل كالنيقا مرصع الحوافي بالحجر الصوان العريض،  
مرصف تمر على هذه القناطر العربات الكثيرة، وهناك قناطر صغيرة  
للمشاة.

وقد أمر القيصصر سنة ١٨٤٠، بتعريض قنطرة انيشيكوف مع أنها محكمة  
إلا أنه لاعتنائه بتحسين مدينته أراد تعريضها بعرض الشارع؛ ليكون المنظر  
أجمل، ففعل ذلك ودام فيها الشغل نحو ٨ شهور، ولما فرغت أغلقت أبوابها،  
واجتمع محفل عظيم من الناس، ولما وصل القيصصر راكبا في كاروصته قيل  
له هيت لك، وفتحت له أول مرة، واستمرت مفتوحة إلى الآن، ووضع على أطرافها  
الأربعة أربعة خيول كل بقائده العريان، وقلت في ذلك:

خيلاً مصورة بأحسن منظر  
بالدرع قامتة ولا بمغافر  
قويت بلا خوف جميع الأعصر  
أن يدخل الساحات أو من يجسر

وضعوا بأطراف القناطر إذ بدت  
كلّ يقاد بسائس ما غطيت  
هذا دليل الخيل والرجل التي  
من يقو إن لم يرص مالك أمرهم

وفي سنة ١٨٤٢ شرعوا في توسيع القنطرة الزرقاء، وفي ذلك الوقت كنت ساكناً في بيت أمام هذه القنطرة، فكنت أشاهد الأشغال ١/٨١ ظا الشاقة المتواليّة من دق أعمدة الخشب في الماء، ثم تنشيفه، وقد تمت هذه القنطرة، وسبب هذا التحسين أن هذه القنطرة أمام القصر المبني لشاهزاده الأميرة الكبيرة ماريه نيقولونه، الذي هو أيضاً من مآثر هذا القيصر، فأراد القيصر توسيع القنطرة؛ لتتسع ساحة القصر، ولذلك هدموا بعض بيوت حائله بين القصر وبين كنيسة إسحاق، وبالجملة فمآثر هذا القيصر لا تحصى، ومحاسن تديره لا تستقصى.